دار العيدروس للكتاب الحديث
موسوعة إسبانيا الإسلامية




العصر الأندلسي

تاريخ وحضارة الأندلس

النظم الإدارية في إسبانيا الإسلامية



البروفيسور/ محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات

دار العيدروس للكتاب الحديث.
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسى

تاريخ وحضارة الأندلس

النظم الإدارية في إسبانيا الإسلامية

البروفيسور / محمد حسن العيدروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية -
رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات



العيدروس ، محمد حسن .

موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العيدروس

. ـ ط 1. ـ القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011

158 ص ؛ 24سم .

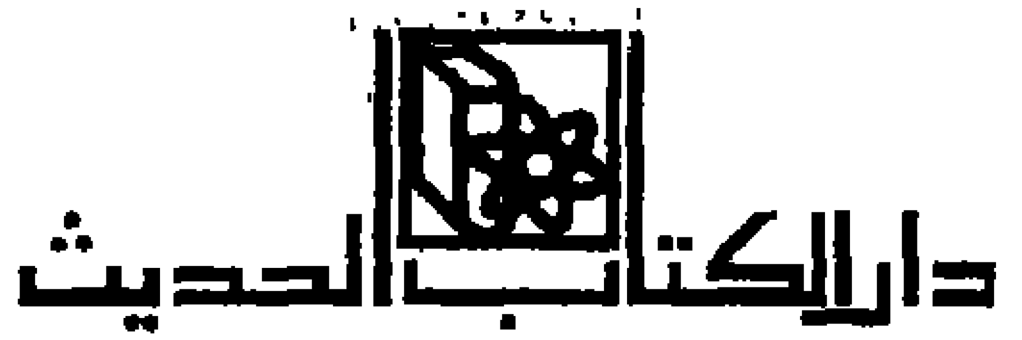
تدمك 2 449 350 977 978

1- الأندلس ـ تاريخ ـ نظم إدارية - موسوعات .

أ- العنوان.

953.071203

رقم الإيداع 21012 /2011

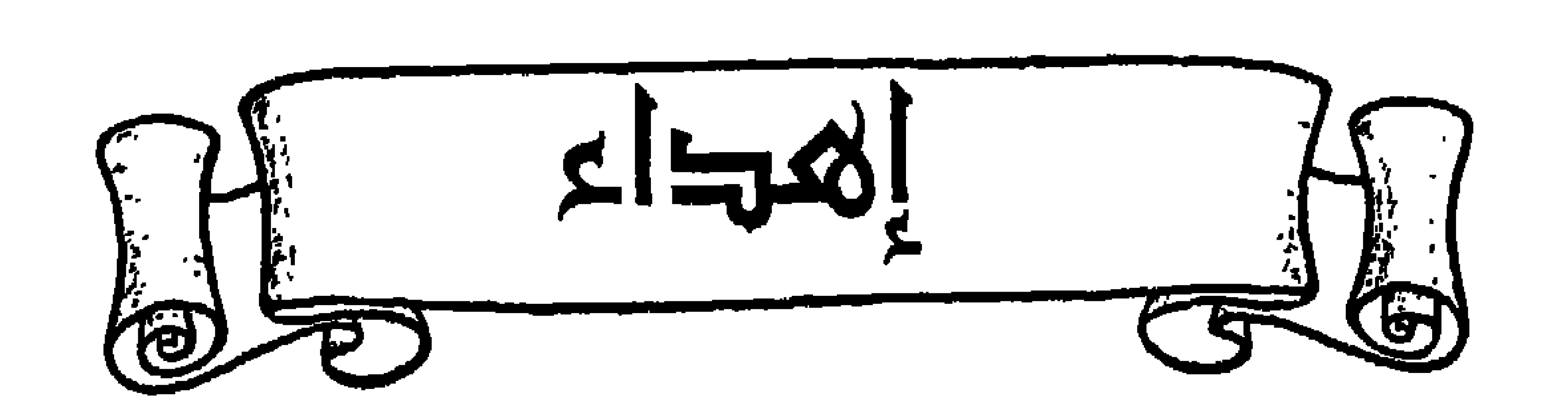


www.dkhbooks.com

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة]. ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]. ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١٤٠) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]. ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]. ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠) ﴾ [البقرة]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء].



إلى كل من دافع عن ارض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدّموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين اكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعًا عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضراً ومستقبلاً.

وإهداء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هى أغلى ما فى الإنسان، وبدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعًا عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى فى عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين»

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضطهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناة حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبي دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصبرا وشاتيلا وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخاريا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معاقلها في غرناطة ولم ينتهِ إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

التفكير السياسي في إسبانيا الإسلامية:

مرت الأندلس بفترات عصيبة عبر تاريخها الطويل، وقد أفرزت هذه الوضعية نمطًا خاصًا من التفكير السياسي هو وليد الظروف السياسية التي كانت تعيشها آنذاك، ذلك أن الوجود العربي الإسلامي هو نفسه الذي كان مهددًا، فالأمر إذن ليس مجرد رؤيةً سياسيةً حول علاقة الحاكم بالمحكوم، أو علاقة فئات اجتماعية مع بعضها البعض، إنه يتجاوز هذا بكثير.

إن الخطأ السياسي هنا يتحول بسرعة إلى جريمةٍ سياسيةٍ تاريخيةٍ تضع صاحبها في قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ وبالتالي يصبح من واجب قادة الفكر التصدي لهذا الأمر بقوةٍ، وذلك ببث الوعي ورسم منهاج سياسي واضح لأصحاب الشأن، ومن هنا تأتي أهمية الفكر السياسي الذي تركه هؤلاء، إذ لا يجب النظر إليه كتفكير سياسي مجرد يصلح في زمان ومكان، بل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب الخفي، خاصة وأن التساؤلات بدأت تطرح وبحدة بعد سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس، إذ أصبح الأندلسيون أنفسهم – ومعهم العالم الإسلامي – يتساءلون: كيف سقطت الأندلس وهي تعج بالعلماء والأدباء والشعراء، كيف سقطت وهي في أبهى حلل الحضارة والرقي الاجتماعي؟ بمعنى آخر: هل انتبه قادة الفكر في الأندلس إلى أنها كانت تسير فعلاً نحو الانهيار والسقوط رغم ما كان يظهر عليها من معالمٍ حضاريةٍ بارزةٍ؟ هل أهمل حكام الأندلس صيحات مفكريها بدعوى أنها غير واقعية؟ هل وهل؟.

كل هذه الأسئلة طرحت بحدة، والأدهى من ذلك أنه بعد السقوط وبعد هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربي وضعوا أمام «محاكمات» فريدة من

نوعها، فقد كانوا يُتهمون باستمرار أن الأندلس ضاعت بسبب تعاونهم ولهوهم ومجونهم، وبالتالي فإن ما وقع لهم هو غضب من الله وعقاب طبيعي ضد أي فئة تهمل شؤون دينها، فكان على أندلسي المغرب أن يبحثوا في تاريخهم، وأن يبحثوا في إنتاج مفكريهم، ليقدموا لهم هذا الإنتاج كورقة دفاع أمام المغاربة، بمعنى أنهم جاهدوا وكابدوا، وأن ما حصل هو قدر من الله، وعلى كل سنحاول مقاربة هذا التفكير باختيار نماذج معينة متجاوزين الصراعات الفكرية والمذهبية التي كانت قائمة بالأندلس أنذاك، مكتفين بربط هذا التفكير بالواقع الساسي بإسبانيا الإسلامية بكامل مكوناته، ومركزين بالخصوص على الفترات العصيبة، أي على الفترات التي بدأت فيها ملامح الأزمة تظهر بوضوح، وبالتالي بدأ هذا التفكير السياسي كرد فعل مباشر وسريع تجاه الأزمة. ترسخت المركزية السياسية في عصر الخلافة منذ إعلانها بقرطبة من طرف عبد الرحمن الناصر 316 هـ/ 928م إلى حين إلغائها 422هـ/ 1031م، إذ نجح هذا الأخير في القضاء على التمزق السياسي وأعاد بسط قرطبة على أقاليم إسبانيا الإسلامية وثغورها. لكن بوفاة الحاكم المستنصر (366هـ/ 976م) بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة الأموية، فلقد تمكن محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور من الحجر على الخليفة هشام الثاني، ونهج سياسة خاصة تجلت بالخصوص من محاربة الفكر المستنير ومطاردة الفلاسفة والمعتزلة، وإتلاف ذخائر مكتبة الحاكم المستنصر الذائعة الصيت، كما فتحت أبواب الأندلس للقبائل البربرية المتطلعة إلى المزيد من النفوذ والسطوة، وقد استمرت الأوضاع في التدهور بعد ذلك مما عجل بانفجار الأوضاع بقرطبة على إثر ثورة العامة وإسقاط الحجابة العامرية 399 هـ/ 1009 م، وتعتبر هذه الثورة التي حركها الباعة والحرفيون إحدى أكبر وأهم الثورات في العصور الوسطى. وبعد عجز الجميع من إيجاد حل لهذه الأزمة ويأسهم من

إمكانية التعايش في ظل نظام العلاقة اتفق الرأي بقرطبة على إلغائه، وكان ذلك إيذانا ببداية عصر الطوائف.

ستعرف إسبانيا الإسلامية في عصر الطوائف انقسامًا سياسيًا خطيرًا لم يعرف له مثيلا من قبل، يقول ابن الخطيب في هذا الصدد: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق، والانشعاب، والافتراق، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء. وهكذا فقد تصارع ملوك الطوائف فيما بينهم، وازداد الخطر العسكري المسيحي من الشمال حيث توج ذلك باحتلال ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة 478 هـ/ 1085 م، وكان لهذا الاحتلال نتائج سياسية خطيرة، فقد وضع حداً لسياسة التعايش مع ملوك الطوائف، وأصبح يعتبر نفسه حاكما شرعيا لإسبانيا الإسلامية كلها، إذ اقتنع بوجوب إخضاع الدول الطائفية الأخرى. والجدير بالذكر أن علماء إسبانيا الإسلامية لم يكونوا بمنأى عن هذه الأوضاع، فقد ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى الاتحاد، وكان على رأس هؤلاء الفقيه أبي الوليد الباجي (403 - 474 هـ) الذي طاف في مدى إسبانيا الإسلامية وقواعدها يحث الناس على جمع الكلمة ووحدة الصف. وهناك عالم آخر عبر بوضوح وبقوة عن انتقاده لهذه الوضعية وهو ابن حزم. يقول ابن حزم في هذا الصدد: «وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر

امتحنا به، نسأل الله السلامة. وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لهـا الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حـصن في شيء من أندلسنا هـذه، أولها عـن آخرها، مـحـارب لله تعـالى ورسوله وسعـى في الأرض بفساده الذي ترونه عيـانًا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجـهة التي يقفـون على أهلها، ضاربون لـلمكوس والجزية على رقـاب المسلمين، مسلمـون لليهـود على قوارع طرق المسلمين فـي أخذ الجزية والضـريبة من أهل الإسلام، معـتذرون بضرورة لا تبيح مـا حرم الله، غرضهم فـيها استخدام نفـاذ أمرهم ونهيهم فلا تغـالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشـر شرهم، الناصـرون على فسـقهم، فـالمخلص لنا فيـها الإمـساك للألسنـة جـملة واحـــدة إلا عن الأمـر بالمـعـروف والنهي عـن المنكر، وذم جميعـهم، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقيـة تسعه، وما أدري كيف هذا، فلو اجـتمع كل من ينكر هذا بقلبه لمـا غلبوا. وهكذا نلاحظ من خلال هذا النص مـوقف ابن حزم من الفتنة ومن ملوك الطوائف إذ يعـتبرهم مجرد مغتصبين ومفسدين في الأرض، لأن الفتنة في الأندلس تتخذ بعدًا أكثر خطورة، فهي ليست مجرد فتنة عابرة، بل إنهـا بداية اقتراب سقوط الحضارة العربيـة الإسلامية بإسبـانيا الإسلاميـة، من هنا نفهم سبب تشبـيث ابن حزم بالخلافة الأموية بإسـبانيا الإسلامية ودفاعه عنها، لأنهـا خلافة وحدت البلد، ولأن سقوطها كان بداية لسقوط الوجود الإسلامي بها، ويقول عن ذلك: «لما كانت الخلافـة من الله على منهاج رسوله، وإقامة شـرائع دينه، احتاج الناس إلى من يقوم فـيهم مقام نبـيهم ﷺ لتتألف برهبـته الأهواء المختلفة وتجـتمع بهيبـته القلوب المتفرقـة، وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبة، وتنقـمع من خوفه

النفوس المعاندة، لأن في طباع البشر من حب المغالبة والقهر، ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي، ورادع كفي، فلما تحقق بذلك الصحابة والمؤمنون، واجتمع على الأخذ به العقلاء والمسلمون لم يكن بد من اجتماع على إمام يحفظ الدين، من غير تبديل أو زيادة عليه أو نقص منه، ويحث على العمل به من غير إهمال له، ويذب عن الأمة من عدو في الدين وعمارة البلدان باعتماد مصالحها وتمهيد سبلها ومسالكها، وتنفيذ من يتولاه المسلون من الأموال بسنن الدين من غير اعتساف في أخذها وإعطائها، ومعاناة المظالم، والأحكام بالتسوية بين أهلها، واعتماد النصفة في فضلها، وإقامة حدود الله على مستحقيها من غير تجاوز فيها، ولا تقصير عنها.

واجبات الخليفة حسب ابن حزم:

أورد ابن حزم هذه الواجبات في كتاب السياسة والجدير بالذكر أن الأفكار الواردة في هذا الكتاب مستمدة أساسًا من الواقع المتمزق الذي كانت تعيشه الأندلس آنذاك، سواء على الصعيد الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، لذلك لا غرابة أن نجد في تقديم النصح هو السمة الغالبة، فهو ما يفتأ يحث الإمام على انتقاء الوزير اللائق وعلى مشاورة أصحابه وولاة جنده وأن يشجع العمارة والفلاحة. وعلى كل فإنه يلخص أفكاره في أشياء محددة:

1 - «حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، وأن نجم مبتدع فيه أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسا من خلل، والأمة ممنوعة من الزلل». 2 - «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم».

3 - «الحمايـة والذب عن الحريم، لتصرف الناس في المعـايش، وينشرون في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال». 4 - «إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن انتهاك، وتحـفظ الأمة عن إتلاف واستهلاك». 5 - «تحصين الثغور بالعـدة المانعة والقـوة الدافعـة، حتى لا يظفـر الأعداء بغـرة، ينتهكون بـها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا». 6 - «جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم، أو يدخل في الذمـة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله». 7 - جباية الفيء والصـدقات، على ما أوجبـه الشرع نصًا واجتهادًا». 8 - «تقدير العطاء، وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقصـير ودفـعه في وقت لا تقديم فـيه ولا تأخـير». 9 - «استكفاء الأمناء، وتقليد النصـحاء، فيما يفـوضه إليهم من الأعمال ويكـل إليهم من الأموال، لتكون الأعـمال بالكفاءة مـضبـوطة، والأموال بالأمناء مـحوطة». 10 - «أن يباشـر بنفسـه مشـارقة الأمور، وتصـفح الأحوال؛ لينهض بسـياسـة الأمة، وحراسة الملة».

إنه في تقديمه لهـذه النصائح كان يستـجيب للحاجة التـاريخية بإسبـانيا الإسلامية بعدما كثـرت المؤامرات داخل البلاط، وادعاء الحجاب التكلم باسم الخليفـة الذي لا يراه أحد، إنهـا نصائح لا تفـهم إلا انطلاقا من خـبراته في الحياة في فترة معينة تقلد فيها مناصب سياسية هامة في الدولة وخبر فيها أمور البلاط. إن القواعد التي سـعى ابن حزم في تحقيقها معارضـة صريحة وعلنية ضد ملوك الطوائف، فكل قاعدة منها هو اتهام علني ضدهم:

- فهو يدعو إلى أصالة الدين ووحدته باعتبارها أساسًا وحدة الأمة لأن في ظهور البدعة والاختـلاف ابتعادًا عن الحقيقة، والابتعـاد عن الحقيقة يؤدي حتما إلى الفـتنة. - وهو يدعو إلى إقامة العدل والأمن للرعـية، خاصة وهو

على علم بما كان يقع؛ نتيجة انصراف ملوك الطوائف عن ذلك واشتغالهم بمسائلهم الخاصة. - وهو يدعو إلى تحصين الثغور وإلى الجهاد لعلمه بتخاذل ملوك الطوائف، بل وتحالفهم مع ألفونس السادس ودفعهم له الجزية. - وهو يشير كذلك إلى ضرورة جباية الضرائب الشرعية فقط، لعلمه أن ملوك الطوائف فرضوا ضرائب غير شرعية وثقيلة على رعاياهم مما كان يؤدي إلى ثورتهم باستمرار. - وأخيرا ينهي قواعده بالتأكيد على ضرورة اختيار أطر الدولة الأكفاء، لعلمه أيضا بالطريقة التي كان يختار بها المسئولون عن تسيير دواليب الدولة[1].

لم يعش ابن حزم ليشاهد علماء إسبانيا الإسلامية يتبعون أفكاره فيما يتعلق بمعارضته لملوك الطوائف، كما لم يعش ليرى إعادة توحيد إسبانيا الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين، بعد معركة الزلاقة التي شارك فيها علماء الأندلس أنفسهم. سنجد علماء إسبانيا الإسلامية آخرين بعد ابن حزم في المراحل الموالية (المرابطة والموحدية) واعين كل الوعي بخطورة الموقف، وهنا نشير إلى أنهم كانوا على إلمام تام بضرورة تماسك الجبهة الداخلية لمواجهة الأخطار الخارجية، وسنعطي كمنوذج لذلك ابن رشد.

لا تخفى أهمية ابن رشدٍ كفيلسوف شهد بعبقريته الجميع، لكننا سنتناول بالدرس ابن رشد المفكر السياسي، خاصة وأن اهتمامه معروف بقضايا مجتمعه، إذ أن كل الذين تحدثوا عنه اعترفوا بأنه كان في خدمة قومه، فابن عبد الملك المراكشي يسجل هذه الشهادة في ترجمته: «وكان على تمكن حظوته عند الملوك وعظم مكانته لديهم لم يكفف جاهه قط في شيء يخصه

---

(1) د. محمد رزون - جوانب من التفكير السياسي - المجلة العربية للثقافة - العدد الرابع 27 سبتمبر 1995 ص 49.

ولا في استجرار منفعة لنفسه، إنما كان يقصره على مصالح بلده خاصة ومنافع سائر بلاد إسبانيا الإسلامية عامة، واستمرت حاله على ما ذكر من تولي القضاء بقرطبة وعرف التهمم بها والاعتناء بمآربه إلى أن نكب النكبة الشنعاء في عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة. وابن فرحون يؤكد نفس الشهادة ذاكرا أنه «لم ينشأ بالأندلس مثله كمالا وعلما وفضلا، وكان على شرفه، أشد الناس تواضعا وأخفضهم جناحا». ثم يقول: «وحمدت سيرته في القضاء بقرطبة، وكانت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترقيع حال ولا جمع مال، إنما قصرها على أهل بلده خاصة». وهنا يجب أن نذكر أن المجتمع الذي كان ينتمي إليه، وهو مجتمع قرطبة، كان من أشد المجتمعات وعيا ومطالبة بشهادة المؤرخ ابن سعيد الذي يذكر أن عامتها شر من عامة العراق الذين سلط عليهم الحجاج ويؤكد «أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بهم». ومع ذلك، لم يسجل أي مؤرخ - حسب علمنا - أن احتكاكا وقع بين ابن رشد ومواطنيه في قضايا معينة، أو أنه أساء التصرف، بل نجد الشهادات المجمعة كلها في صالحه، مما يدل على خبرة الرجل بقضايا مجتمعه، ووعيه بخطورة المرحلة التي يجتازها الأندلس، وأن لا سبيل إلى التهاون في مثل هذه القضايا، لأن ذلك يؤدي إلى الفتنة، والفتنة تؤدي حتما إلى السقوط الشامل بأيدي المسيحيين المتربصين. ومما يدل على خبرته ودرايته بأمور السياسة ما أورده في كتاب تلخيص الخطابة عند تعرضه للمواضيع التي يهتم بها الخطيب في كلامه للجمهور، يرى أن الأهم منها هي التي تتعلق بقضايا الجماعة، قضايا الشعب، وهي التي يسميها «الأمور العظام»، فيقول عنها: «والأمور التي يشير بها الخطيب، منها ما يشير به على أهل مدينة بأسرهم، ومنها ما يشير به

على واحد من أهل تلك المدينة أو الجماعة، فأما الأشياء التي تكون في الأمور العظام من أمور المدن، فهي قريبة من أن تكون خمسة: أحدهما الإشارة بالعدة المدخرة من الأموال للمدينة، والثاني الإشارة بالحرب والسلم، والثالث الإشارة بحفظ الشعر مما يرد عليه من خارج، والرابع الإشارة بما يدخل في البلد ويخرج عنه، والخامس الإشارة بالتزام السنن. وهما أمران مرتبطان: «الاتحاد ضروري للجهاد بشقيه الأصغر والأكبر، ومن هنا كان إلحاق ابن رشد في كتبه النقدية: فصل المقال، ومناهج الأدلة، وتهافت التهافت، على الاتحاد، فهو ما فتيء يؤكد على فكرة واحدة وهي أن تمزقا حدث في أمة المسلمين، وأنه ينبغي وضع حد لهذا التمزق. وعندما يتعلق الأمر بالجهاد فإن ابن رشد يتحول من موقف الفيلسوف الهادئ الرصين إلى موقف الوطني الغيور الذي يذكي الحماس في نفوس أبناء بلده، ويقول عنه ابن عبد الملك في هذا الصدد: «وكان حسن الخلق جميل المداراة، فصيح العبارة، وجادا للكلام في المجالس السلطانية والمحافل الجمهورية. قال أبو القاسم بن الطيلسان: سمعت كلامه بالمسجد الجامع من قرطبة وهو يحض الناس على الجهاد والغزو في سبيل الله».

ظلت القواعد بإسبانيا الإسلامية تتساقط باستمرار إلى أن انحسرت أخيرا في جنوب إسبانيا الإسلامية بغرناطة وضواحيها، حيث تكونت مملكة بني الأحمر التي عمرت أزيد من قرنين ونصف عرفت فيها أحداثا جساما سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فالانقسامات كانت تنخر جسم الدولة النصرية باستمرار، والضغط المسيحي كان على أشده، إما بالهجوم مباشرةً، أو بتقديم المساعدة لهذا الثائر أو ذاك مقابل وعود معينة، وكل هذا كان يجري على مرأى ومسمع من مفكري وعلماء إسبانيا الإسلامية، وبالتالي فقد كان عليهم أن يتأملوا ويحاولوا تشخيص الداء للبحث عن الدواء، خاصة

وأن العديد من هؤلاء شاركوا في الأحداث السياسية، وعاينوا بأنفسهم الظرف التاريخي الذي كـانت تعيشه المنطقـة، وسنختار نماذج من هؤلاء بعد التقاط صور لبعض الأحداث السياسية التي كانت تعيشها المنطقة.

ابن عاصم في مواجهة الأزمة:

دخلت مملكة غرناطة عهد الانحلال السياسي بعد وفاة الغني بالله محمد الخامس بن الأحـمر عام 793 هـ/ 1391 م، إذ خلفه على عـرش غرناطة ابنه يوسف الثـاني. إلا أن هذا الأخيـر لم يعش طويلا فـتوفـى في السنة التاليـة 794هـ/ 1392 م، وولي العـرش بعده ابنـه محـمد السـابع الذي كـان أكثـر اعتماده في تسيير زمام الأمور في مملكة غرناطة على قائده محمد الخصاصي. وفي عهد محـمد السابع 799 هـ وقعت معركـة قرب جبل طارق بين السفن القشـتالية من جهـة المسلمين (الأندلسيين والتونسـيين والتلماسيين) من جـهة أخرى انتهت بهزيمة المسلمين وتدمير سـفنهم. وفي عهد يوسف الثالث وقعت على أهل غرناطة هزيمة كبيـرة في انتقيرة Antequera 813 هـ/ 1410 م، وقد سقط في هذه المعركة أبو يحيى بن عاصم المعروف بالشهيد.

توصلت الفتن والاضطرابات السياسية في عـهد الغالب بالله محمد ابن نصر الأمير، إذ خلع عن عرشة أربع مرات، وكـان ملك قشتالة جوان الثاني Juan II يعـمل عـلى تأجيج هذه الفتن، ويـزيد في اضطرامـهـا بمـخـتلف الأساليب، وذلك كي يتسنى له بسط سـيطرته على مملكة غرناطة، وقد بسط أبو يحيى بن عـاصم، مؤلف جنة الرضـا، ذلك في رسالته التي خـاطب بها أهل غرناطة على إثر انتـهاء فتنة أبي الحـجاج يوسف بن أحمـد بن نصر أبي أخت الأيسر 851 هـ/ 1448 م. وهذه الرسالة ذات قيمة كبيرة إذ تصور حال غرناطة وطبـيعة الصـراع بين أهلها وبين القـشتاليين. والجـدير بالذكر أن ابن

عاصم لم يكن بعيدا عن هذه الأحداث فقد كان من خاصة السلطان محمد ابن عاصم، ولذلك قضى ابن عاصم حياته في خوف وقلق، ولحقته محن أشار إلى كثير منها في كتابه جنة الرضا. وهكذا فقد تولى مفكرنا اثنتي عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والإمامة والخطابة في فترات عصيبة بالنسبة للأندلس، وشاهد أمام عينيه مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق بيد المسلمين إلا غرناطة التي بدأ العدو يستعد للوثوب عليها، وقد نلاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتعاونهم لاشتغالهم بفتنهم الداخلية وأفضت به تأملاته إلى تأليف كتاب في شكل «صور» محاولا البحث عن أسباب المأساة وفي نفس الوقت التحذير من الخطر الداهم، وقد لاحظ المقري ذلك، وهو بصدد نقل نص للمؤلف المذكور، قائلا: «عندما رأى (ابن عاصم) اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصارى - دمرهم الله - لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة، وما بقرب منها مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ، ثم أفضى الملك إلى بعضهم، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألَّف كتابا سماه: «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى»، وهو كتاب عجيب جدا، غريب.

سنحاول أن نلقي نظرة على كتابه متوجين من ذلك الوقوف على الهدف، ومنهجه في تحليل المأساة. يوضح ابن عاصم أول الأمر الهدف من تأليفه كتابه قائلا: «إنما قررت من هذا التمثيل ما قررت، وحررت فيه من العبارة ما حررت ليكون لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري ووثق ما حققت له من اختيار تذكره، ومن غفلة هذه النفوس الأمارة بالسوء تبصر ولهذا الغرض فإنه يورد العديد من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وكلام الحكماء وقصص الأولياء، وأحداث تاريخية متنوعة تؤيد ما ذهب إليه. ووضع الكتاب في ست صور: **الصورة الأولى**: «أن يكون الابتلاء في المقتنيات العزيزة على

النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال»[1]. **الصورة الثانية**: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال، وهو مأمول الجبر ولا مرجو الزوال». **الصورة الثالثة**: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال». **الصورة الرابعة**: «أن يكون الابتلاء في النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال». **الصورة الخامسة**: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال».

تحت هذه الصور من الابتلاءات والتمحيصات والاختبارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والأسف والوجد والتعب والقلق والهم والنكد وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يذهل العقل ويشغل الفكر ويغمر القلب ويتعب النفس ويضيق الصدر ويذهب النوم ويطرد الأنس، ويتفاوت أثره بحسب مآثره في اللين والشدة والثقل والخفة والكثرة والقلة وبحسب الملاقي له والوارد عليه وقوة الجأش وضعفه ومضاء العزيمة ووهنا وهي صور توحي لأول وهلة أنها بين اليأس والرجاء، إلا أنه بالتدقيق فيها يتضح أن صور الرجل تميل إلى اليأس أكثر من الرجاء فإنه قد تمرس بالسلطة وعرف رجالها كما أنه خبر قوة المسيحيين ومكايدهم ومدى قدرة واستعداد المسلمين على المواجهة وهذا ما يتضح بجلاء من بين ثنايا الصور: ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، وأنه مهتم بمراعاة

(1) د. محمد رزون - جوانب من التفكير السياسي بالأندلس خلال نماذج معينة - المجلة العربية للثقافة - سبتمبر 1994 - العدد 27 - ص 43.

أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسير حسوا في ارتغائه، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه، فتبا لعقول تقبل مثل هذا المجال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال، وليت المغمور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فأنشده الله هل بات قط لمصالح النصارى وسلطانهم مهما. فالرجل إذن واع بخطورة الأساليب التي يتبعها المسيحيون لضرب المسلمين هناك خاصة وأنهم استمالوا عددا منهم بدافع المصلحة الآنية، ونداؤه هنا صريح: وهو أن التعاون مع هؤلاء هو في حقيقة الأمر تهديد غير مباشر لسيطرة المسيحيين على ما تبقى من أرض المسلمين، هو على مستوى العامة يدعوهم إلى عدم التعاون مع المسيحيين، وعلى مستوى السلطة: يدعوها إلى الاتحاد لأن الفرقة في السلطة تؤدي حتما إلى دب الخلاف بين العامة مما يهيء عاملا إضافيا للقوات المسيحية المتربصة: «فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعا، . . . تعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسي كان قد تحين للهلاك بسبب هذا الخلاف وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف.

ومن خلال ما أوردناه نلاحظ أن ابن عاصم في تحليله للمأساة يركز على ثلاث فقط: - أساليب العدو في الاستيلاء على أراضي المسلمين بالمكايد والحيل. - الخلاف في السلطة. - عدم التمسك بالعقيدة (بفعل الحملات التشكيكية القوية التي كان يمارسها المسيحيون).

وهذه العوامل متكاملة إلى حدٍ كبيرٍ، فاستمالة المسلمين تقتضي التشكيك في عقيدتهم، والخلاف في السلطة يؤدي إلا إضعافها وعدم القدرة على مواجهة المحاولات التجريبية التي يقوم بها المسيحيون لهدم الكيان العربي

الإسلامي. لكن يبقى السؤال دائمـا مطروحا: هل وجدت نداءات ابن عاصم آذانا صاغيـة؟ إن التاريخ يبين عكس ذلك! فالمسألة كانت قد اسـتشرت داخل المجتمـع الإسلامي الأندلسي بغـرناطة إلى حدٍ كـبيـرٍ، والإسبان كـانوا على الأبواب.

أبو عبد الله محمد بن الأزرق (ت 876 هـ/ 1491 م): محاولة تشخيص الداء:

اشتـغل ابن الأزرق بأربع وظائف، اثنتين رسميـتين، واثنتين تطوعتين، أما الرسميتان فهما القضاء والسفـارة، وأما التطوعيتان فهما التدريس والإفتاء وقد شغل هذه المناصب بالأندلس (خاصة مسـقط رأسه مالقة وغرناطة). وقد كانت له مشـاركة واسعة في الفـقه والعقائد والأدب والتاريـخ كما تدل على ذلك مؤلفاته على أن ما يهمنا بالنسبة لموضوعنا هو كتابه في السياسة: «بدائع السلك في طبائع الملك» كتبه ابن الأزرق 883هـ/ 1478م ولم يلبث مدة حتى سقطـت مالقة في مـوطنه 692 هـ/ 1487 م، فـهل استـشعـر النكسة قـبل وقوعها؟

أوضح ابن الأزرق الهدف من تأليف كتابه قـائلا: قصدت إلى تلخيص ما كتب الناس في الملك والإمـارة والسياسة التي رعيها عـلى الإسعاد يصالح المعـاش والمعـاد أصـدق إمـارة على نهج يكـشف عن مـحـيـا الحكمـة قناع الاحتجاب، ويأتي في تقريره لتهذيـب ما فصل وتحريره بالعجب العجاب، لا تحف به من تشوف لهذا الغرض، ولم يعدل فيه من الجوهر إلى العرض، من أمـير صـدقت فيـه رغبـته وظهـرت، ومأمـور وضحت له دلائل الإفـادة به وبهرت. وفعـلا فالكتاب في كثير من جـوانبه تلخيص لما أورده ابن خلدون، فكأنه أراد بذلك أن ينبه إلى ما سبق أن نبه إليه الأول عندما استعرض أسباب فساد الـعمران، وهو إن اختلف مع سـابقيه من حيث المنهج فـإن الهدف مع

ذلك واحد، إذ هو مرتبط أساسا بالوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها الأندلس آنذاك، فحاول من خلال استعراض (قواعد الملك) أي الأسس التي يجب أن يركز عليها كل حكم أراد لنفسه الاستقرار والبقاء، فقد وضع إسبانيا الإسلامية أما الصورة بكل وضوح عندما استعرض هذه الأسس، أي مخالفتها تؤدي حتما إلى هدم الكيان ككل وقيام كيان جديد دخيل وهو في هذه الحالة: الإسبان. ولهذا فكتاب ابن الأزرق اعتباراً لهذه الأسس جميعا تشخيص للداء ومحاولة للبحث عن الدواء. عاين ابن رضوان تمزق إسبانيا الإسلامية وسقوط الثغور، الثغر تلو الثغر، كما عاين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية بإسبانيا الإسلامية، عاين حكام غرناطة وهم يثقلون كاهل الرعايا بالضرائب غير الشرعية، عاين النزاعات بين أفراد البيت المالك، عاين تكالب القوات المسيحية على غرناطة، بل وتحالف بعض الثائرين مع الممالك المسيحية ضداً على المسلمين، عاين، وعاين. وبعد التأمل، تكونت لديه قناعة بضرورة الرحيل إلى المغرب المريني، خاصة وأن جهاد أبي الحسن بالأندلس ما زال ماثلا أمام الأذهان، وذلك للبوح بما كان يكتمه في صدره وهو بعيد عن أرض الصراع، فألف كتابه «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» والكتاب وإن ألف أصلاً للسلطان أبي سالم المريني (حكم من 760 هـ إلى 762 هـ) إلا أنه في الحقيقة يعتبر بمثابة تحذير قوي وشديد للسلطان يشبه فيه من مغبة أن يقع بالمغرب ما وقع بإسبانيا الإسلامية، فهو إنذار بوقوع الكارثة. فهو في كتابه يستشهد كثيرا بما أورده ابن حزم والطرطوشي، ملمحا إلى ما كان يدعو إليه هؤلاء من ضرورة تماسك الجبهة الداخلية لمواجهة الأخطار الخارجية، فهو من خلال خمس وعشرين بابا يحاول أن يرسم قواعد سليمة للملك. ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت، صامدة ضد هجمات المسيحيين. ونستطيع أن نستخلص عوامل هذا

الصمود من خـلال نص أورده مارمول Marmol وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلا: «كان الأمير أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمـر، وقد صار أقوى من تولوا هذه الإمارة منـذ انقراض خلفاء عـبد الرحـمن. وقد تأتي له ذلك بـسبب مـا وقع بين الأمراء النصـارى من النزاعات. فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم، وكانت لديه مدافع كثيرة وذخيرة بالإضافـة إلى جيشه من الفـرسان والراجلة المجهزين بالبنادق، وقـد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة، وكان عطاء هـؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غـيرهم لأنهم كـانوا أعداء ألداء للنصارى. هناك إذن، حسب هذا المؤرخ الإسـباني القريب من الأحداث على الأقل ثلاثة عوامل ساعدت على هذا الصمـود: - تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غـرناطة، وتصمـيم رجالهـا على الدفاع عن حـوزة بلادهم بتأييـد من الفقهـاء والعلماء. - تنازع الممالك المسـيحية في الشـمال، إذ حال ذلك دون اتخاذ تدابير حاسمة ضد المملكة الإسـبانية. - مساعدة بني مرين والمجاهدين المغاربة عموما، إذ كانت هذه المساعدة تضفي الحيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة.

لكن بمجـرد اختفـاء هذه العوامـل بدأت مؤشرات الـسقوط تظـهر في الأفق، فالبيت المالك أصبح منقسما على نفسه ومملكة قشتالة أوراجون توحدتا وعقدتا العزم على اقـتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقـة والمغرب لم يعد قادرا على تقديم ما كـان يقدمه من مساعدات بسـبب أزماته السياسية والاقـتصادية التي كـان يمر بهـا آنذاك، وبدأت بذلك مرحـلة جديدة تخـتلف جـذريا عن المرحلة السـابقة. هكذا انتـهت فصول هذا الـنزاع المرير الذي خاضـه العرب بإسبانيا الإسلامية وهو صراع كـان يدرك وزنه جيدا الإسبان، إذ اعتبروه نقطة

تحول هامة في تاريخهم، وهو في نفس الوقت يدل على أهمية المقاومة المغربية ولننظر إلى الذي تركه المؤرخ الإسباني السالف الذكر وهو يتحدث عن دخول الإسبان قصر الحمراء: «دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليبًا كبيرًا من فضة، ولواء الملكية المسيحية، وما أن أبصرت الملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الأرض واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماسي في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية، عند ذلك بدأ فيرناندو وبعض عِليةُ القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها، تقدم نحوه أبو عبد الله (آخر ملك غرناطة) ممتطيا جواده، ولما دنا من فرناندو، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني، لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل شفقة عليه، فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فيرديناد اليمني، وقدم إليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها إلى الكونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة. ولم يكن مفكرو إسبانيا الإسلامية بعيدين عن هذه الأحداث، فلننتظر ما كتبه مؤرخ أندلسي مجهول عاصر سقوط غرناطة وشاهد بعينيه تمزق إسبانيا الإسلامية، وهجرتهم إلى المغرب العربي، فاضحا كل ممارسات حكام غرناطة والتي أدت في النهاية إلى هذا السقوط المروع. فيذكر وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة 883 هـ: «ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاص، ذلك أنه اشتغل باللذات، والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والحفلات وطبع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان، وثقل المغارم وكثرت الضرائب في البلدان، ومكن الأسواق، ونهب الأموال، وشح بالعطاء إلى

غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك. وكان الأمير أبي الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك، فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مشتغل باللذات، منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الأموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها، ويجعل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثير من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها». فالنص خطير، ويبين إلى أي حد وصلت الأمور في الأندلس، وكأن النتيجة كانت معروفة مسبقا: «ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرمهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينه كرها وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد سول الله جهرا، إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حريق وكم فيها من الضعفاء والمعدومين ولم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا نهيهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب! فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وأمرها وطامة ما أكبرها». وقد كان وقع السقوط في النفوس كبيراً، ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس، رثاء أحمد الدقون لها: وبعد هذه نظرة عامة عن التفكير السياسي بإسبانيا الإسلامية من خلال نماذج معينة، رأينا فيها كيف كان هذا التفكير يقظا مستنيرا، يرشد وينبه، بل ويتنبأ بما

سيقع، لكن عوامل داخلية وخارجية حالت دون تبني هذا الفكر من طرف القادة والحكام، لأن المصلحة الآنية والشخصية كانت تطغى في كثير من الأحيان على المصلحة العامة، ولأن تقديرات حكام الأندلس سواء فيما يتعلق بالقضايا الداخلية أو الخارجية كانت في غالب الأحيان خاطئة[1]. فما أحرانا اليوم ونحن نخلد ذكرى هذا السقوط أن ننتبه ونركز لئلا نقع في أخطاء الماضي، والتاريخ لا يرحم.

يرى الونشريسي في بعض الأحيان التوسع وإعطاء نبذة عن الحالة التي يتحدث عنها. من ذلك مثلا ما فعله حين مناقشة إمكانية قبول خطاب المدجنين وقضاتهم الذين كانوا تحت إيالة النصارى، فيشير إلى المتمرد عمر بن حفصون وقضاته الذين كان يعينهم في المناطق الخاضعة له، وأنه لا تقبل شهادتهم ولا خطابهم، ثم يذكر نبذة عن ابن حفصون وحركته مستندا إلى الرازي، لكنه لا يشير إن كان هذا هو أحمد بن محمد الرازي أم ابنه عيسى. كما ينقل أيضا عن ابن القوطية. ولا تختلف النصوص التي يوردها الونشريسي كثيرا عن نص ابن القوطية المنشور لكنه يضيف أحيانا بعض التعبيرات أو الإضافات كقوله إن عمر كان «شجاعا مقداما». وعلى الرغم من اختصار الونشريسي إلا أن نصه ينفع في المقارنة مع نص ابن القوطية. وبالنسبة لرواية الرازي، فقد نص ابن حيان في كثير من مقتبساته عن ابن حفصون على أنها عن عيسى بن أحمد الرازي أما ابن عذارى، فقد نقل إما مباشرة عن ابن حيان أو أنه لم يشر في أماكن أخرى إلى مصادره وتتميز الرواية التي ينسبها الونشريسي إلى الرازي أنها تتضمن أحيانا بعض الإضافات، مثل ذكر القرية التي تنتسب إليها أسرة ابن حفصون، وهي

---

(1) د. محمد رزون - نفس المرجع ص 49.

«وابة»، بينما تكتفي رواية ابن حيان بالإشارة إلى الكورة، وهي تاكرونا من عمل رندة Ronda وربما تكون (وابة) هذه هي التي أشار إليها رينهارت دوزي R. Dozy على أنها حصن أوط Aute . كذلك أشارت رواية الرازي التي ذكرها الونشريسي إلى نص مهم يتضمن لقاء ابن حفصون بالقاضي عامر بن معاوية اللخمي، في إحدى جولاته، فاحترمه وقبَّل يده. وقد دعاه القاضي أن يتقي الله في الناس إذا ملك رقابهم، ومن هنا ازداد اقتناع عمر بتحقيق أمله في الفوز والوصول إلى الزعامة. وتزيد بعض إشارات الونشريسي من معلوماتنا عن الأمويين، من ذلك مثلا التعرف على أسماء بعض أفراد أسرة الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206 – 238 هـ/ 822 – 852 م) من خلال الأحباس التي أوقفها عليهم، منها ابنته من أم عبد الله، ومنها جاريته أم المطرف شفاء وولدها، ومنها جاريته أم المغيرة اهتزاز، ومنها جاريته أم المنذر مدمرة وولدها، ومنها جاريته أم عبد الله طروب وولدها.

كذلك يمكن الاستفادة من بعض الملاحظات التي وردت في المعيار في التعرف على أحوال عصر الطوائف وبعض الشخصيات المتميزة فيه، مثل سعيد بن أحمد بن رفيل. الذي تمرد بحصن شقورة لأعوام كثيرة، واغتصب أموالاً لا تحصى، وفرض الضرائب على الرعايا بجهة جيان Jean وغيرها حين لا نجد مثل هذه التفصيلات في المصادر التاريخية المعنية، فكل ما أشار إليه ابن عذارى مثلاً عن هذا الرجل في حوادث 435 هـ/ 1043 م، إنه (سعيد بن رفيل صاحب شقورة) دون ذكر تفصيلات عنه وعن حركته وما قام به إزاء السكان في المنطقة. ومن الشخصيات الأخرى التي قدم المعيار معلومات عنها، شخصية الكاتب أحمد بن رفاعة، كاتب بشير الصقلي العامري صاحب الشعور أيام آل عامر وأحد المستورين في الفتنة، الذين استقروا بقرطبة في عهد آل جهور، وتوفى بها 436 هـ/ 1044 م. وينقل الونشريسي

معلوماته التاريخية هذه عن متين ابن حيان الذي لم تصلنا الكثير من نصوصه وذلك في أثناء الحديث عن وصية هذا الكتاب وكيفية تنفيذها واختلاف رأي الفقهاء فيها. كذلك يشير إلى شخصية أخرى في دويلة بني جهور، هي شخصية إبراهيم بن السقاء قيم هذه الدويلة، ويشير إلى (أنه من أهل الاستطالة في الأموال والاستبداد بها وأنه كان مقلا وتوفي مثريًا) ويفيد هذا النص في المقارنة مع ما جاء في المصادر التاريخية في وصف هذا الرجل المتوفى 455 هـ/ 1036 م، ومدح لسياسته وضبطه لأمور بني جهور، وأنه كان حسن السيرة والسياسة. ويقدم المعيار معلومات أخرى عن هذا العصر، لا سيما فيما يخص بعض أعمال المنصور عبد العزيز بن أبي عامر، وواضح العامري في شرق الأندلس، مثل بنائها للرباع والحوانيت، وتخصيص مواردها لنوائب المسلمين وأرزاق الأجناد، وعدم ظهور ما يشير إلى قيامها بأي غصب أو استيلاء على أموال المسلمين ولكنه من جهة أخرى يورد ما ينص على قيام ابن عباد باغتصاب أملاك وعقارات في منطقة إشبيلية Sevilla، لا سيما ما أخذه من ابن الزهري، حيث غصبه مجزأ أو قرية، استحوذ عليها دون وجه حق. ويقدم لنا الونشريسي في المعيار حلاً لمشكلة سياسة تاريخية بزمن خروج مدينة برشلونة Bercelona من أيدي المسلمين، وذلك حينما يورد إجابات فقهية عن حكم المسلمين المتخلفين في أرض يسيطر عليها الأعداء: «وسألته عمن تخلف من أهل برشلونة من المسلمين من الارتحال عنها بعد السنة التي أجلت لهم يوم فتحت في ارتحالهم فأغار على المسلمين تعوذا مما يخاف من القتل إن ظفر به. فلقد استولى المسلمون على برشلونة لآخر مرة 375 هـ/ 985 م حينما انتصر الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر على كوند المدينة بوريل الثاني Borrell II، ودخل المدينة وترك بها حامية إسلامية، ولكن هذه الحامية عبر إلى الضفة الأخرى لنهر إبرة Ebro، مما هيأ للكوند بوريل الرجوع إلى المدينة، وليس لدينا تفاصيل في المصادر العربية عن هذه المسألة ويبدو من

النص الذي أشار إليه الونشريسي أن الكوند بوريل أنذر المسلمين في المدينة بمغادرتها خلال عام واحد اعتبارا من عام 377 هـ/ 987 م، وخرجوا عام 388/ 788. وتدل إشارة الونشريسي أيضا على وجود بعض المسلمين في المدينة اشتركوا مع النصارى في حماية إخوانهم خلال العام الذي أجلهم فيه الكوند بوريل خوفًا على حياتهم. وأخيراً يقدم لنا الونشريسي رأي فقهاء غرناطة عن قيام أبي عبد الله الصغير على والده أبي الحسن، وتأييد بعض قادة الأندلس وفرسانها له، وما أعقب ذلك من فتنة مبيرة واستعانة بالنصارى أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة وضياع إسبانيا الإسلامية. وقد صدرت الفتيا عن نحو خمسة عشر من سادات وعلماء المدينة وفقهائها، وأشارت إلى أن عملية أبي عبد الله الصغير هي محض عصيان وخروج على طاعة الله ورسوله، وأنها أدت إلى إيقاد نار الفتنة والعداوة وتفريق المجتمع مع توهين أمر المسلمين وأطماع العدو الكافر بهم، وأن استنجادهم بالأعداء لا يجوز، وكذلك تجديد بيعتهم للأمير المأسور ما هو إلا إصرار على المعاصي والمحرمات. وقد قيدت هذه الشهادة في أواسط شهر رمضان عام 888 هـ/ 1483 م. ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية التي تناولت الصراع بين أبي عبد الله الصغير وأبيه أبي الحسن علي لا يشير إلى هذه الفتوى إلا بصورة عارضة، حيث يذكرها المقري باختصار قائلاً: «وتكلم أهل العلم فمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته، ومن أطاعه عصى الله ورسوله» أما المؤلف المجهول لكتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر الذي كان معاصرا لهذه الأحداث، فلا يشير إلى هذه الفتوى، على الرغم من امتعاضه الواضح من عملية الأمير أبي عبد الله[1].

(1) د. جمعة شيخة - الشعر الأندلسي كمصدر للتاريخ - المجلة العربية العدد 27 - سبتمبر 1959 ص 151.

نظام الحكم والإدارة على عهد عبد الرحمن الداخل

رغم المجهودات المضنية التي بذلها عبد الرحمن في إخضاع البلاد وإقرار الأمن والنظام وقمع الفتن والثورات مما استغرق معظم وقته ونشاطه فإن هذا لم يمنعه من وضع تراتيب الدولة وإقامة نظمها وطبعها جميعا بطابعه الخاص. تعبر الرواية عن ذلك بما تنسبه إلى الخليفة العباسي المنصور من أنه أطلق على عبد الرحمن لقب «صقر قريش» وفسر ذلك بأن الأمير الأموي عبر القفر وركب البحر حتى دخل بلدًا أعجميا منفردًا بنفسه، فمصّر الأمصار وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه. ورغم أن الكتاب لا يهتمون إلا بالتاريخ السياسي ويهملون النظم الإدارية فإنه من المعروف أن الولاة الذين سبقوا عبد الرحمن الداخل في حكم إسبانيا الإسلامية باسم خلفاء دمشق كانوا قد نقلوا إلى البلاد النظم الإدارية المعمول بها في الشام وركزوا الحكم في قرطبة. وكان على عبد الرحمن أن يعمل على تهذيب هذا التنظيم الحكومي وجعله مناسبا لمقتضى الأحوال، وترتب على ذلك أن أصبحت الأندلس إمارة مستقلة تتحكم في مصيرها ومستقبلها بعد أن كانت إقليما بسيطا من أقاليم الإمبراطورية العريضة. فقبل وصول عبد الرحمن الأول إلى إسبانيا الإسلامية كانت البلاد قد قسمت إلى أقاليم إدارية «قرى وكور» لكل منها واليها الذي يقيم في «قاعدة» الإقليم أي عاصمة (كما رأينا – الأجناد). وسيظل هذا التقسيم قائما بالأندلس إلى انهيار الخلافة الأموية الإسبانية. وكذلك كان الحال بالنسبة للتنظيم العسكري غير أنه يلاحظ أن عبد الرحمن عمل (حوالي منتصف عهده) على تكوين جيش نظامي كفء (قيل أنه بلغ حوالي 100 ألف رجل) وأنه استدعى لذلك البربر من المغرب كما أتى بالمماليك من مختلف الأجناس من جنوب أوروبا وأنه عمل على إنشاء حرس ملكي خاص ربما بلغت قوته 40 ألف رجل حسب بعض الروايات من موال وبربر وسودان ومماليك (الصقالبة فيما بعد).

فيما يختص بالدواوين والإدارة فيكتفي الكتاب أيضا بذكر بعض أسماء مستشاري بلاط الداخل وهؤلاء لم يكونوا يحملون لقب «الوزير» كما سيحدث فيما بعد كما أن هناك ذكر لأسماء بعض قضاته وحجابه. ولم تكن وظيفة الحاجب في ذلك الوقت تشبه وظيفة رئيس الوزراء كما سيحدث فيما بعد بل كانت أشبه ما يكون بوظيفة أمين القصر - أي دار الأمير - كما كان الحال بالمشرق أي الذي يمنع الناس من الدخول على الأمير دون إذن وينظم مقابلاته. أما عن النظم المالية فالمعلومات عنها ليست بأكثر وفرة ولكن القول بأن أمراء إسبانيا الأول من الأمويين اتبعوا دون شك النظم التقليدية التي كانت معروفة بالشام وبقية أطراف الإمبراطورية وأن ابن حفيده وسميه عبد الرحمن الداخل الثاني بن الحكم هو الذي سيدخل على النظم السياسية بعض الإصلاحات التي أدخلها العباسيون بالمشرق. كان يحق لعبد الرحمن لأسباب عاطفية أو واقعية ألا يتسامح في وجود أي نفوذ في بلاده لأولئك الذين اغتصبوا عرش أجداده بالمشرق. وعلى ذلك اعتبروا لواء العباسيين الأسود في إسبانيا كرمز للفتنة والانفصال، بينما ارتفعت الراية الأموية البيضاء بزهو وتقوى (كان لواء عبد الرحمن في أول الأمر عبارة عن عمامة علقت في رمح. وذلك كما حدث في المشرق عندما اتخذ أعداء العباسيين اللون الأبيض شعارا لهم، ولهذا سموا بالمبيضة، على عكس العباسيين الذين عرفوا بالمسودة. ومن البياض اشتق الفعل بيض بمعنى الخروج على الدولة أو شق عصا الطاعة. كما أن الفتن التي أثيرت بتحريض خلفاء بغداد قمعت دون شفقة، بل وأكثروا من هذا فإن بعض الكتاب نسبوا إلى عبد الرحمن الداخل مشروعًا خياليًا يتلخص في المسير إلى الشام وطرد العباسيين: فقيل أن أمير قرطبة أعد في 163 هـ (780) الإعدادات المناسبة للحملة، لولا أن منعته الثورة التي قامت بسرقسطة.

تحتل مسألة التنظيم الإداري مكانًا بارزًا من سياسة هؤلاء الأمراء المستقلين الذين عرفهم تاريخ الإسلام، ولم يكن همهم إخماد المعارضة فحسب أو إنشاء الجيش الصالح للقتال فحسب، إنما كانوا يهتمون في المحل الأول بإنشاء الإدارة الحازمة أداة لإصلاحاتهم الداخلية وتنفيذ سياستهم وتشديد قبضتهم على البلاد، وإيجاد طبقة من الموظفين تخلص لهم كل الإخلاص وتتفانى في خدمتهم واستحداث نظم تحقق أهدافهم، وضع الطولونيون والإخشيديون موضوع التنظيم الإداري نصب أعينهم بل كان عماد نفوذهم وسلطانهم وكذلك فعل الأغالبة والأدارسة. لننظر ماذا فعل عبد الرحمن. أنشأ عبد الرحمن حكومة على النسق الأموي وكان اتجاهه هذا طبيعيا، فقد استقى من تقاليد عرفها الأمويون وطبقوها وحققت لهم السؤدد نحو من تسعين سنة، هذه التقاليد الأموية يطلق عليها «التقاليد الشامية». وكانت هذه التقاليد تعتمد على أسس واضحة على تكوين جماعة من الرجال المخلصين للدولة ينهضون بعبئها في العاصمة والأقاليم، فهم رجال من العرب أو من موالي البيت الأموي يحققون أهداف البيت الأموي. وقد شهد العصر الأموي في الشرق جيلاً كاملاً من الإداريين الأكفاء والقواد المهرة نهضوا بالعبء كله أمثال زياد والحجاج ومسلمة بن مخلد وقرة بن شريك وموسى بن نصير، وكان جيل الإداريين الذين خلقهم تنظيم عبد الرحمن لا يقلون كفاية أو إخلاصًا عن ذلك الجيل القديم. كانت الدولة الأموية دولة رجال، الرجال أنفسهم هم السجلات والقواعد والأهداف، بينما كانت الدولة العباسية دولة بيروقراطية، دولة سجلات ودفاتر ودواوين وكتاب. ويعلق المؤرخون على هذا الاتجاه بقولهم: إن الأمويين في الأندلس أعطوا البلاد رجالا ولم يعطوها نظاما، وهذا على العكس مما فعله العباسيون أوجدوا النظام وافتقروا إلى الرجال، وكلا الاتجاهين لا يخلو من ضعف.

على كل حال نهض عبد الرحمن بأعباء دولته بنفسه واعتمادا على أهل بيته الذين استدعاهم وعهد إليهم بمهام الأمور وكون طوائفًا من الموالي المخلصين وأكسب الدولة كلها طابعًا عربيًا قرشيًا أمويًا، وهذا ما يعرف في المصطلح بالتقليد الشامي في إسبانيا الإسلامية. وقد قسم إسبانيا الإسلامية إلى كور وفقًا للنظام الشرقي المعروف مع الاحتفاظ بالخطوط الكبرى للتقسيم الإداري الذي عرفته منذ أيام الرومان، ولم يغير من السياسة الاقتصادية القديمة كثيرًا وإن كان قد اتجه إلى تخفيف أعباء الخراج ليتلاءم مع الأوضاع الاقتصادية. وقد أدى هذا الإصلاح إلى تحسين أحوال الفلاحين والارتفاع بمستوى الإنتاج الزراعي وكان رائده أن ضرائب خفيفة يدفعها كل الناس فائدة من ضرائب فادحة لا يدفعها إلا أقل الناس، وكان في هذه السبيل يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه ابن طولون في مصر حينما جعل الخراج أساس الموارد المالية للبلاد. وقد سلك عبد الرحمن بنظام الوزارة مسلكًا جديدًا، وإن كان يتفق مع النظام الذي ألفه المشرق في بعض الاتجاهات. كان العباسيون مثلاً يختارون رجلاً واحدًا ويفوضون إليه أمور الإدارة جميعًا إحياءً للتقاليد الفارسية القديمة. أما عبد الرحمن كان يختار طائفةً من الوزراء من أنصاره ومواليه يختص كل منهم بأمر من أمور الدولة، وكان رئيس هؤلاء جميعًا يسمى الحاجب، وأصبح نظام الحجابة هذا تقليدًا جرى عليه الأمويون من بعد عبد الرحمن، وكان منصب الحاجب تزداد مهامه ويتسع سلطانه حتى يأتي اليوم الذي نجد فيه حاجبًا أندلسيًا يعلو على الخلافة نفسها ويتحكم في مصيرها. وكان عبد الرحمن مقلدًا لجده عبد الملك بن مروان ولعمه الوليد فكانت له قدرة فائقة على التعمير وإنشاء المدن والقصور والحصون فهو الذي تطور بمدينة قرطبة من مجرد مدينة ريفية زمن القوط أو معسكر حربى زمن الولاة حتى أصبحت حاضرة كبرى بدأت تعمر، وبدأ الناس يتوافدون عليها

من كافة النواحي، وبدأت تأخذ ذلك الطابع المميز الذي أعطاها شخصية فريدة في العالمين الشرقي والغربي طوال العصور الوسطى. وهي تختلف عن عواصم الإسلام الأخرى، عن الفسطاط والكوفة والقيروان، فقد كانت هذه المدن معسكرات للجنود العرب أوجدتها ضرورة عسكرية. أما بغداد فقد أوجدتها ضرورة سياسية، على حين قرطبة كانت مدينة قبل أن تصبح عاصمة ولم يكن اختيارها موفقًا فهي لا تتوسط شبه الجزيرة ولا تقع على مدخل الهضبة الوسطى مما يمكنها من السيطرة الفعلية على شبه الجزيرة. وأهم منشآت عبد الرحمن: الجامع الأموي في قرطبة هذا الجامع الذي أنشيء إنشاءً جديدًا على نحو يشبه من بعض النواحي مساجد الإسلام الأولى، وقد أصبح هذا المسجد على تعاقب الأيام عنوان مجد الأمويين ورمز عزهم. وفي مواجهة الجامع على نفس الضفة من الوادي الكبير أنشأ القصر وهو أيضًا تحفة فنية تزداد من حيث الحجم والجمال مع الزمن، وبين القصر والجامع نجد الطريق الكبير الذي يمتد من ضفة الوادي الكبير إلى شمال البلدة ويسمى «بالمحجبة الكبرى» ويتصل ذلك الطريق بالضفة الأخرى للنهر عن طريق قنطرة الوادي التي تردد صداها كثيرًا في الأدب الأندلسي[1]. ولكن رغم الحقد الطبيعي الذي كان يكتبه الأمير الأموي لمن سفكوا دم أسرته فإنه لم يجرؤ في أوائل حكمه على عدم الدعوة لهم في خطبة الجمعة بالمسجد الجامع. وعلى ذلك كان يخطب للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور طوال السنة التي تلت استيلاءه على قرطبة، ولكن عندما خضع يوسف الفهري، لفت ابن عم الأمير وهو عبد الملك بن عمرو بن مروان الذي كان قد هاجر حديثا إلى الأندلس، نظر عبد الرحمن إلى الأثر السيئ الذي يحدثه هذا العمل وطلب إليه أن يخطب لنفسه. ورغم هذا فإن عبد الرحمن مثله مثل

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 93.

خلفائه الأوائل، لم يفكر في اتخاذ اللقب الخلافي: لقب أمير المؤمنين. ولن يحدث ذلك إلا في 316 هـ. (929 م) كما سنرى على عهد عبد الرحمن الناصر الذي سيترك لقب الأمير ويتخذ لقب أمير المؤمنين، وذلك لأسباب سياسية في مجملها، في الوقت الذي طالب فيه خليفتان آخران هما الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي بأحقية هذا اللقب. إلا أنه لا نعرف بالتأكيد عما إذا كانت الخطبة قد عادت باسم الخليفة العباسي، في فترة الانتقال، تحت تأثير المتزمتين من الفقهاء الذين كانوا يحرضون كما كان الحال في الجهات الأخرى، وعلى احترام فكرة الخلافة، الواحدة التي لا يجوز أن تتجزأ أو تتعدد. مهما يكن من أمر فإن عبد الرحمن لم يجرؤ؛ على أن يتخذ من ألقاب السلطان أكثر من لقب «الملك» أو «الأمير» واكتفى بأن يضيف إليها «ابن الخلائف». ويظهر احترام «فكرة الخلافة» كذلك في النقود التي سكت بالأندلس على عهد الأمويين الأوائل. ورغم لقب عبد الرحمن المتواضع فإنه لن يلبث أن يفرض نفسه على الجميع وينتزع إعجابهم بنشاطه الذي لا يحد، وجوه في العمل على إحياء أسرة أجداده الشاميين في الطرف الأقصى من مغرب العالم الإسلامي. ويذكر الكتاب العرب في هذا المقام بعض الأقاصيص منها أن الخليفة المنصور العباسي نعته «بصقر قريش» التي استعملها كثير من مترجميه فيما بعد. ويسميه المؤرخون عبد الرحمن الداخل (المناجر) لتمييزه عن ابن حفيده عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط، وعن الخليفة الكبير عبد الرحمن الثالث الذي سيتخذ اللقب الخلافي «الناصر لدين الله» الذي يعرفه به المؤرخون. على عهد الداخل أخذت قرطبة شكل العاصمة الإسلامية، وفي آخر عهده ازداد سكانها زيادة سريعة. ولقد سبقت الإشارة إلى أنه لكي يهيء للعدد الكبير من المؤمنين الذين يزدادون على مرور الأيام المكان المناسب في المسجد الجامع اضطر عبد الرحمن إلى توسيع بيت الصلاة،

وذلك بشرائه من المستعربة من أهل قرطبة نصف كنيستهم الذي كانوا قد احتفظوا به للقيام بطقوسهم الدينية. وكان في الفترة ما بين ذلك قد أقام في المسجد سقائف من الخشب وبعد أن وافق النصارى على ترك كنيستهم، دون صعوبة، هدم عبد الرحمن كل البناء وبنى الجامع 169 هـ/ 785 م: وانتهت الأعمال في نهاية عام. ويقول الكتاب أن نفقات البناء بلغت 80 أو مائة ألف دينار. هذا المسجد كان بسيطًا نسبيًا، كما لم يكن كبير المساحة، وعلى ذلك فإن خلفاء عبد الرحمن سيأخذون على عاتقهم توسعته والإصلاح من خطته ومن شكله. إلى جانب ذلك بنى عبد الرحمن، حسب رواية بعض الكتاب، مساجد أخرى صغيرة في مختلف الأحياء. كما ينسبون إليه أيضًا إنشاء أسوار قرطبة 149 هـ/ 766 م، أو على الأقل إصلاحها، إذ أن الوالي السمح بن مالك الخولاني كان قد أقام حولها سورا من الطوب قبل ذلك بنصف قرن.

احتفظ عبد الرحمن في أول الأمر بالإدارات المختلفة للحكومة في قصر الولاة القديم أي في دار الإمارة كما يسمى، والذي كان يشغله ولاة القوط من قبل ثم نسق من جديد. ثم أنه في 168 هـ/ 784 - 785 م، شيد في نفس المكان وذلك قرب الوادي الكبير جنوبًا والمسجد الجامع شرقا، قصراً جديدًا حول إليه ديوانه وأقام هو نفسه فيه. وكان حتى ذلك الوقت يفضل الإقامة، عندما يكون وجوده في الأقاليم أو على حدود الدولة غير ضروري بالرصافة، وهي محل إقامة واسع تحيطه الحدائق والبساتين في منطقة خلوية، وعلى شاطئ جدول على بعد 3 (ثلاثة) كيلو مترات من شمال غرب قرطبة.

اسم هذا القصر الريفي الذي اختاره عبد الرحمن نفسه يعبر عن الحنين الذي كان يشعر به الأمير كثيراً إلى وطنه البعيد. إذ كان جده الخليفة هشام قد أطلق اسم الرصافة على قصره الصيفي الواقع في شمال شرق تدمر بين هذه

المدينة والفرات والذي كان قد هيــأه لسكانه وسط الحدائق والبساتين 110 هـ/ 728 م. وكذلك فـعل خلفاء هشام الذين لم يكونوا ليــستطيعــوا المقام طويلا خارج بادية الشام التي تلائم مزاجهم البــدوي، فكانوا يذهبون للإقامة لفترات طويلة بعض الشيء في إحدى قصور (قلاع) رصافة هشام. ربما ذكرت رصافة قرطبة عبد الرحمن، وكان قد رأى بها، ذات يوم أثناء تجواله، نخلة، برصافة الشام فبنى بها قصره المفضل رغم بعده الـنسبي عن قلب العاصمة. وبعد عبد الرحمن الداخل اعتنى كـثير من الأمراء المروانيين بتوسيع وتجـميل هذا القصر الذي ظل قائمًـا حتى آخر أيام الأسرة الأمـوية، والذي سيعطي.اسمــه عندما تتسع قرطـبة في القرن العاشر إلـى ضاحية (ربض) من أكثـر ضواحي المدينة سكانًا وتوجد الآن في موضع الرصــافة عند سفح الجبل قرية ريفـية ما زالت تحتـفظ بهذا الاسم Arrizafa ومنذ ذلك الوقت سـيحمـل الكثير من مـنيات الأمراء الأمويين في ضواحـي قرطبة وربما بعض قباب القصـر أسماء مواضع من بادية الشام: مـثل قصر الحـائر، داخل القصر الملكي، الذي خل بقـرطبة اسم قصر آخر ينسب بناؤه إلى الخليفـة هشام. وهناك ما يحمل على الظن أن التقاليد الشامية ربما استـمرت لمدة طويلة بإسبانيا ولو لم يدخلها أحد الأمويين ويتربع على عرشها. فعندما استقر جند بلج في جنوب الجزيرة - دون الكلام عن غيرهــم ممن ساقتهم الظروف والأحــداث إلى إسبانيا الإسلامـية من أهل الشام - احتفظوا لمدة طويلة بعادات أجدادهم، وذلك في بيئة طبيعية تشبه من عدد من الوجـوه طبيعة وطـنهم القديم. إلى جانب هذا علمت الهـجرة التي شجعــها عبد الرحــمن الداخل على زيادة طبع إسبانيــا بالطابع الشامي. ومع مرور الوقت ستصبغ هذه المؤثرات الشامـية - منذ عبد الرحمن الثاني الأوسط - بحضارة بغداد. ويمكن القول إجمالاً أن إسبانيا المسلمة ستأخذ شكلاً شرقيًا تمامًا لمدة قـرن جديد في معظم مظاهرها الإدارية والاجتـماعية، وذلك بتـأثير دمشق في أول الأمر ثم عن طريق بغداد مباشرةً، بعد هذا.

أما عن المسلمين الجدد أو المولدين، فرغم أنهم كانوا يكونون الأغلبية العظمى لأهل إسبانيا الإسلامية، فإنهم سيسببون لخلفاء عبد الرحمن الداخل متاعب بلغت في بعض الأحيان درجة كبيرة من الخطورة. ونظرًا لقلة الوثائق فإنه لا يمكن معرفة موقف عبد الرحمن الأول. إزاءهم بدقة، ولكن لما لم يكن العهد بعيدًا بافتتاح البلاد على أيدي العرب فمن المحتمل أن ذكريات استبداد القوط كانت ماثلة في أذهان الزراع والعامة من سكان المدن، وأن هؤلاء لم يكونوا ليطلبوا أكثر من حياة هادئة، وعلاقة طيبة مع الحكومة المركزية. وزيادة على ذلك فإن الأمير الذي كان يحتقرهم بعض الشيء من غير شك رأى أن من مصلحته مداراتهم وذلك في غمار الفتن التي أثارها العرب والبربر وكان عليه قمعها. الأحد 17 محرم 748 هـ/ 1343 م. وقاد ملوك بني الأحمر الجيوش بأنفسهم أثناء مواجهتهم الحربية مع الإسبان، وقام عدد منهم بواجبهم العسكري أحسن قيام. وأشاد عدد من المؤرخين بشجاعتهم وإقدامهم في مواجهة العدو، وكما ذكرنا سابقًا إن هذه الصفات كان يعتمد عليها كأساس لاختيار مسلمي إسبانيا حكامهم وملوكهم ومنهم من كان يؤم الناس في صلاة العيدين مثل السلطان أبي الحجاج الذي اغتيل أثناء سجدته الأخيرة من صلاة عيد الفطر يوم فاتح شوال عام 755 هـ/ 19 أكتوبر 1354 م. أما إذا تأملنا الحياة الخاصة للسلطان، فنجد أنه كان يقيم بالقصر، يحيط به رجال حاشيته وحسب بعض المصادر لم يحط سلاطين بني الأحمر أنفسهم بالعظمة والأبهة، بل غلب على غالبيتهم مظاهر التقشف. وتشير غالبية المصادر إلى حالة محمد الأول عند دخوله غرناطة، فقد بدا عليه أثر التواضع؛ فلم يكن يرتدي «سوى شاية مضلعة أكتافها ممزقة»، وتشير المصادر أيضًا إلى بساطة السلطان محمد الخامس الذي كان يتردد مع حاشيته على شوارع غرناطة وكان يرتدي لباسًا غير مترف، فآنست العامة بقربه، وسكنت

الخاصة إلى طيب نفسه، في حين ذكر ابن خلدون أن ملوك بني الأحمر كانوا يرتدون ملابس موشاة بالذهب اقتداءً بمن سبقوهم من الملوك، وأكد ابن سعيد أن ملابسهم كانت شبيهة بملابس النصارى المجاورين لهم. ويبدو من هذا الاختلاف في آراء هؤلاء المؤرخين حول لباس ملوك بني الأحمر أنه في بداية الدولة النصرية كان لباس الملوك لباسًا متواضعًا وبسيطًا، بينما طبع بمظهر الأبهة والعظمة لاحقًا عندما أرسى الملوك اللاحقون دعائم دولتهم وثبتوا ركائزها. أقام ملوك بني الأحمر بقصر الحمراء، الذي زودوه بأسوار وأبراج منيعة وبارزة، تشرف من فوق على المدينة حيث: الشرفات البيض، والأبراج السامية، والمعاقل المنيعة، والقصور الرفيعة تغشي العيون وتبهر العقول. وكانت هذه القصور تحيط بها الجنان الخضراء، والأدواح الملتفة والمناظر الرائعة. أما احتفالاتهم التي كانوا يقومون بها فهي تتم في مناسبات متعددة، كمناسبة إعذار أولادهم، أو خروجهم في رحلات للصيد. وكان يعقد أثناء هذه الاحتفالات عدة مجالس، يحضرها كبار موظفي الدولة، ويترأسها عدد من الشعراء الذين كانوا يحصلون على عدد من الهدايا، وعدد من الكتب والملابس من السلاطين ورجالات الدولة، إلى جانب امتلاك أراض خاصة كانت تدعى بـ «المستخلص» تحيط بأسوار غرناطة، وتزخر بالزراعة والحيوانات المنزلية. وكان يباشر هذا المستخلص السلطاني ويسير أموره «عامل المستخلص». وسوف تقودنا دراسة قامت مملكة الأحمر في غرناطة على يد محمد بن يوسف بن نصر الغالب بالله. وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه عقب صلاة الجمعة يوم 26 رمضان 629 هـ/ 16 يولية 1231، أعلن أهل أرجونة في مسجد المدينة مبايعة يوسف بن الأحمر ملكًا عليهم، فبعثوا إليه ودخلوا في طاعته، وأرسلوا إليه بيعتهم مع أبي بكر بن الكاتب وأبي جعفر التيرولي، فلبى ابن الأحمر دعوتهم وتوجه إلى المدينة فدخلها واتخذها عاصمة للمملكة.

سمي هذا الملك - وخلفاؤه من بعده - بأمير المسلمين، وقد خوطبوا بألقاب الخلافة من باب التشريف، فمحمد الأول لقب بأمير المسلمين، ومحمد الثالث بالمنصور بفضل الله والناصر لدين الله، وأبو الجيوش لقب بالمستعين بالله، والمؤيد بالمنصور، كما حمل بعض السلاطين ألقابًا لها دلالات خاصة مثل محمد الشيخ، وكلمة «شيخ» لقب بها لتقشفه وتصوفه. ولقب السلطان محمد الثاني بـ «الفقيه» لاهتمامه بالعلم والعلماء، ومجالسته لهم وتفقهه. وأشار القلقشندي إلى أن لقب الفقيه من ألقاب العلماء، وكان نادر الاستعمال عند أهل مصر، بينما كان منتشرًا بين أهل المغرب. ولقب محمد الثالث بلقب «المخلوع»؛ لأنه خلع عن عرشه على يد أخيه إسماعيل، إضافة إلى أوصاف أخرى لقب بها ملوك بني نصر وهي أوصاف ملئت بالمدح والثناء، كالمجاهد، والمقام العالي، والحضرة العَلِيَّة، والمجاهد في سبيل الله، والإمام الهمام، الإمام العادل. أما مقر الحكم في حمراء غرناطة فكان يذكر «حرسها الله» غالبًا في المراسلات السلطانية. أما تسمية سلاطين غرناطة ببني الأحمر كما أشرنا من قبل فترجع إلى وجود شقرة في جدهم الأكبر عقيل بن نصر، وهو أول من لقب بهذا اللقب، وذلك لشقرة غلبت عليه، واستمرت هذه الشهرة في بعض أفراد بني الأحمر كمحمد السادس (761 هـ/ 1362 م) الذي كانت بعض المصادر الإسبانية تطلق عليه اسم برميخو Bermejo بمعنى اللون البرتقالي. وكان توقيع بني الأحمر في أول الأمر: «لا غالب إلا الله»، وهو شعارهم المعروف. ورأينا في الفصل الخاص بالعمران كيف زينت ونقشت قصورهم بكتابات متعددة تخللها شعار: «لا غالب إلا الله»، وأيضًا حماماتهم وقاعاتهم ومساجدهم. وبعد هذا الشعار اختار بنو الأحمر شعارًا آخر هو علامة «صح هذا».

امتازت بعض توقيعاتهم بخفة الروح ودعابة نادرة، مثال ذلك توقيع السلطان محمد الفقيه على رقعة شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات الحكومية. إلى جانب التوقيع، استعمل ملوك بني الأحمر الختم أو (الخاتم). ولم يكن مستحدثا في عهدهم، بل كان سائدًا في الدول التي سبقت الإسلام وما بعده، إذ كان يوضع على الصكوك والرسائل. وقد عرف الختم تطورًا ملحوظًا عبر التاريخ. انتقل من دس الورق كما كان سائدًا بالمغرب، ومن تلصيق الصحيفة بعد طيها كما كان متداولاً ببلاد المشرق، إلى استعمال نقش مميز على الشمع الملصق على الرسائل، إلى أن انتهى الأمر أخيرًا باستعمال خاتم من الذهب يرصع في الغالب بقطع دقيقة من الياقوت والزمرد ويكون كشارة شارة مميزة للسلطان. وكان السلاطين النصريون يوقعون المعاهدات بأنفسهم، ويذكرونها في نص المعاهدة ويضعون عليها طابع الذهب المعلق بشرارب الحرير. أما لباسهم فكان لباسًا ملوكيًا موشى بخيوط الذهب، سائرين فيه على سبل من سبقوهم من الملوك، كما كانوا يلبسون العمائم. وذكر ابن الخطيب أن السلطان أبا الوليد إسماعيل عندما سقط تحت طعنات قاتلة كان مرتديًا عمامة على رأسه. قال واحتمل السلطان على بعض دوره وبه رمق للزوق العمامة بفوهة ودجه المبتور، ففاض لحينه. وقال ابن سعيد أثناء حديثه عن غرناطة وأهلها: إن لباس سلاطينهم وأجنادهم كان شبيهًا بزي النصاى المجاورين لهم، والشيء نفسه أكده ابن خلدون قائلاً: إنهم يتشبهون بالنصارى في شاراتهم وعوائدهم وحتى في رسم التماثيل على جدران مصانعهم وبيوتهم. اتخذ ملوك بني نصر اللون الأحمر لونًا لأعلامهم وراياتهم، كما اتخذوا لهم مقصورة في المساجد للصلاة وكان ينظم لهم أثناء حركاتهم وجولاتهم في جهات المملكة موكبٌ خاصٌ يرافقه موكب من الطبول والبنود يسمى «الساقة». أما ما يخص وراثة العرش، فالمصادر لم تشر

إلى الكيفية التي يتم بها اختيار ولي العهد داخل أسرة بني الأحمر؛ إذ لم تكن هناك قواعد محددة يتم بمقتضاها وراثته، فنجد أن السلطان محمدًا الأول قام في حياته بتعيين ولده محمد الثاني وليًا للعهد 662 هـ/ 1264 م، كما أن محمدًا الرابع تولى الحكم بعد وفاة والده في 27 رجب من 725 هـ ولم يكن قد بلغ بعد سنته العاشرة، وتولى الحكم بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول وهو ما زال موراهقًا في الخامسة عشرة من عمره وبويع لمحمد بن يوسف عام 739 هـ/ 1338م وكان صبيًا لا أثر فيه لإنبات ولا حركة تدل على بلوغ، بل هناك بعض السلاطين من شاركه الحكم ولي عهده، مثل محمد الفقيه الذي قام بالأمر بعد أبيه، وباشره مباشرة الوزير أيام حياته وأيضًا أبي عبد الله محمد الثالث المدعو بالمخلوع الذي تهنأ العيش مدة أبيه، وتملى السياسة في حياته، وباشر الأمر بين يديه. وبقي حكم ملوك بني الأحمر في غرناطة طيلة قرنين ونصف من الزمن قبل سقوطها في أيدي الإسبان دون أن ينافسهم في ملكها أحد. أما على المستوى السياسي، فقد سار ملوك بني نصر في حكمهم كغيرهم من ملوك العصور الوسطى على مبدأ الحكم المطلق؛ فكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية، ويباشر أموره بنفسه، وكان من طبيعة هذا النظام التنافس للوصول إلى المناصب والتباهي بالسلطة والتفاخر بالحكم.

انحصرت السلطة بهذه الأسرة في يد السلطان الذي يتولى شؤونها العامة وحمايتها، ويتصرف في أموال بيت المال والتي كان مصدرها الزكوات والضرائب على الأرض، والملاحة والفلاحة، والتجارة والمكوس المفروضة، والمزارع الخاصة والمصادرات. وإذا تحدثت المصادر عن رئيس للديوان، ووزير وقائد حربي، فدورهم لا ينحصر إلا في مراجعة القرارات والأحكام الصادرة عن السلطان، وللملك وحده حق القرار فيها إما بالقبول وإما بالرفض. وانفراد السلطان بالحكم لم يكن يمنعه من أن يستعين بالزعماء والقادة ورجال

الحاشية، يستشيرهم في سياسة الدولة، ويناقشهم في أمورها الداخلية والخارجية وفق ما تقتضيه المصلحة العامة وحسب ما تمليه الظروف والأحوال في مجلسه الذي كان ينظمه يومين في الأسبوع وهو ما يعرف «بالديوان»، ويتم عقده بالمشور. وصف ابن الخطيب محمداً الشيخ بأنه: كان آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجهورية، جنديا ثغريًا، شهمًا أيدًا، عظيم التجلد، رافضًا للدعة والراحة، مؤثرًا للتقشف والاجتزاء باليسير، متبلغًا بالقليل، بعيدًا من التصنع، جافي السلاح، شديد الحزم، موهوب الإقدام، عظيم التشمير محتقرًا للعظيمة، مقربًا لصنفه، مصطنعًا لأهل بيته فظًا في طلب حقه، مباشرًا للحروب بنفسه، تتغالى الحكاة في موقع سلاحه وزنة دبوزه، يخصف النعل، ويلبس الخشن ويؤثر البداوة، ويستشعر الجد في أموره، كما أشاد ابن سعيد المغربي بشجاعة هذا القائد وجهاده في مناورة العدو، وأكد أن هذه الصفات عند مسلمي إسبانيا كانت هي الأساس عند اختيار ملوكهم في هذه الفترة العصيبة، ثم وصف ابن الخطيب ثاني ملوك بني نصر وأساس أمرهم محمدًا الثاني المعروف بالفقيه كان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة وحزمًا، ممهد الدولة الذي وضع ألقاب خدمتها، وقدر مراتبها، واستجاد أبطالها، وأقام رسوم الملك فيها، واستدر جباتها، مستظهرًا على ذلك بسعة الذرع، وأصالة السياسة، ورصانة العقل، وشدة الأسر، ووفور الدهاء، وطول الحنكة، ومملوءة التجربة. كان مقر عرش سلاطين بني نصر بقاعة السفراء، والتي كانت مقرًا لاستقبال الوفود والسفراء ورجال الدولة، يعقد الملوك اجتماعات هي كمجالس للشورى يستعينون بها في مناقشة أمور الدولة وشؤونها الداخلية والخارجية، ويتم عقدها بدار العدل بقصبة الحمراء يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، يحضرها السلطان والرؤساء من أقاربه وأعوانه ونحوهم. وتفتتح هذه الاجتماعات بتلاوة القرآن

الكريم أولاً ثم الأحاديث، ثم ترفع المظالم إلى السلطان ويشافهه طلاب الحاجة، كما يتم أثناء هذه الاجتماعات استقبال الوفود، وتخصص أوقات فيها لإلقاء بعض القصائد من طرف الشعر. وكان من عادات سلاطين بني نصر القيام برحلات تفتيشية لتفقد أحوال مملكتهم. وقد وصف ابن الخطيب - الذي كان شاهد عيان - في مقامه: خطرة الطيف ورحلة «الشتاء والصيف» رحلة السلطان النصري أبي الحجاج يوسف الأول التفتيشية. كانت إسبانيا الإسلامية تتبع عقب الفتح مباشرة، وكان والي المغرب العربي يقوم باختيار حاكم إسبانيا الإسلامية ثم رأى الخليفة «عمر بن عبد العزيز» أن تكون إسبانيا الإسلامية ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة إدراكًا منه لأهمية إسبانيا الإسلامية وللدور الذي تقوم به في الفتوحات ولصراعها مع ملوك الفرنجة. ولما توفى «عمر بن عبد العزيز» عاد تعيين والي إسبانيا الإسلامية إلى والي المغرب العربي لكن بمصادقة الخليفة، وبعد وقعة بلاط الشهداء عادت الخلافة إلى تعيين والي إسبانيا الإسلامية من جديد، ولما اضطربت الأمور أصبح والي المغرب العربي هو الذي يعينه حينًا وأحيانًا جماعة الزعماء والقادة في شبه الجزيرة، فقد استقر رأيهم مثلاً على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهري (129 هـ/ 747 م) خشية تفاقم الفتن دون مصادقة لا من والي المغرب العربي ولا من الخلافة. ثم جاء بنو أمية لحكم إسبانيا الإسلامية واكتفوا بلقب الإمارة برغم أن بلاطهم كان ينافس بلاط العباسيين في قوته وبهائه إلى أن جاء عهد «عبد الرحمن الناصري» ورأى أن الأوضاع قد تغيرت وأن الفاطميين قد أقاموا لهم خلافة في المغرب فأصدر مرسومًا بتحويل الإمارة الأموية إلى خلافة، وتلقب هو نفسه بلقب أمير المؤمنين، وبلغت الخلافة إسبانيا الإسلامية أوج نفوذها السياسي والأدبي في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر، ثم جاء «محمد بن أبي عامر» فجعل نفسه حاكمًا مطلقًا على إسبانيا الإسلامية واتخذ

سمات الملك وتلقب بالحاجب المنصور، وأضحت الخلافة في زمنه وزمن أبنائه اسمًا بلا مسمى. ثم تبوأ «محمد بن هشام» الملقب بالمهدي الخلافة لتنتهي ثنائية السلطة بين الأمويين والعامريين، لكن ذلك كان بداية فترة مشحونة بالفتن والفوضى، وقامت خلافة في أكثر من مدينة في مالقة وقرطبة وإشبيلية وغيرها، وانتهى الأمر بتمزق إسبانيا الإسلامية إلى ولايات ومدن مستقلة وظهور ما يعرف بدول الطوائف.

الوزارة في إسبانيا الإسلامية

لم يلجأ الأمويون في إسبانيا الإسلامية إلى نظام الوزارة باختصاصاته التي يعرفها المشارقة، واعتمدوا في تسيير أمور دولتهم على رجال من البيوت الشهيرة دون أن يمنحوهم ألقابًا بعينها، حتى قادة الجيوش حملوا لقب القائد في زمن الحملة العسكرية فقط، ولكن ظهور شخصيات بارزة جعل من الضروري أن تختص تلك الشخصيات بمهام وألقاب محددة، لهذا أصبح «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» قائد الجيوش، وحمل مع ذلك لقب الحاجب، وتولى كل اختصاصات رئيس الوزارة في المشرق، وأضحت الحجابة هناك مثل رئاسة الوزارة وأصبح الحاجب الشخصية الثانية بعد الأمير، كذلك تم توزيع المهام الإدارية بين رجال البيوتات المشهورة، فهذا خازن (وزير المالية) وهذا للأمن (الشرطة الداخلية) وهذا للمنشآت (الأشغال العامة). وحمل هؤلاء لقب الوزير على أنه تشريف، ومنذ أيام «عبد الرحمن الأوسط» أصبح وزير الأندلس له نفس مهام واختصاصات الوزير في المشرق، كما كان هناك وزراء دولة يكلفهم الأمير بما يشاء في أي وقت.

أما أهل البيوتات الذين شغلوا هذه المناصب فهم موالي بني أمية وفروعهم، ثم انضمت إلى هؤلاء أسر قربها الأمراء، بعضها عربي وبعضها

مولد أو مستعرب وكثير من هؤلاء من أصول بربرية من ذوي الكفاءات وللأمويين أسلوبهم في إقامة الوزراء، ذلك أن من ترفع وسادته من بيت الوزارة يعتبر مقالا، وأحيانًا كان يمنح بعض الموظفين الكبار مثل حاجب المدينة أي المحافظ لقب الوزير، وعندئذ كان يدعى الوزير صاحب المدينة. وكانت الوظيفة الكبيرة في الأندلس يطلق عليها لقب «خطة» فيقال «خطة الوزير» أو «خطة الكتابة» (الإنشاء) أو خطة المظالم (الشكاوى) أو «خطة القيادة»، وكانت خطة القضاء من الخطط الكبرى، ويقصد بها قضاء قرطبة أو الجماعة، ولا يتولى صاحبها قضاء قرطبة وحدها بل له حق تعيين القضاة أو عزلهم في المدن والأقاليم الأخرى، وهؤلاء يعتبرون نوابًا عنه ويعتبر هو مرجعهم، وقاضي الجماعة هو الشخصية الثالثة بعد الأمير والحاجب، ولذا تطلب الأمر التدقيق عند اختياره، ورغم مكانة القاضي، فإن الكثيرين لم يرغبوا في شغل هذا المنصب؛ لأنهم قد يجدون حرجًا في أداء مهام وظيفتهم ضد كبار الموظفين أو مع أمير لا ترضيه أعمالهم الحريصة على العدالة وحدها. وفي أواخر عهد الدولة العامرية تولى الصقالبة الخطط الكبرى، ثم تولى الفتيان العامريون الحجابة لآخر الخلفاء الأمويين، واستبدلوا بعد ذلك برئاسة المدن والولايات، وظهر في عهد الدولة العامرية بدعة جديدة هي إسناد الحجابة إلى الأطفال فقد استصدر عبد الملك - مثلا - أمرًا من الخليفة «هشام» المغلوب على أمره بتعيين ولده الطفل «محمد» في منصب الحجابة ولقبه بذي الوزارتين . . كذلك استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل خطة الأسلحة وخدمة الوثائق وخطة خزانة الطب والحكمة . . . إلخ.

الجيش والأسطول:

عبـر إلى شبه الجزيرة جيش الفتح مكونًا من العرب والبـربر «العرب العاربة»، وقام البربر بدور مهم في تكوين قوى الأندلس دفاعًا وهجومًا، ولما كون عبد الرحمن الغافقي جيشه بهدف غزو بلاد الفرنج، كان البربر «العرب العاربة» من عناصره المهمة، وبقيت القيادة بيد الضباط العرب، ثم ظهر خلاف بين العرب البربر، بسبب إحساس البربر باستيلاء العرب على القيادة لأنفسهم فقط ثم كانت ثورة البربر «العرب العاربة» في المغرب وانتقال بلج بن بشر القشيي إلى إسبانيا الإسلامية الشيء الذي رجح كفة العرب غير أن الجيش الأندلسي ما لبث أن انقسم إلى العرب الشاميين وأنصار «بلج» والعرب والبربر المحليين، وقامت الحرب الأهلية، إلى أن جاء يوسف ابن عبد الرحمن الفهـري فأعاد تنظيم الجيش وأصلحه، وجعله جيشًا أندلسيًا، يغزو ويرد هجمات نصارى الشمال. ثم جاء «عبد الرحمن الداخل» فاتهم جنوده المتطوعة والمرتزقة (100) ألف مقاتل، بخلاف الحرس الخاص الذي تكون من (40) ألفًا من الموالي والرقيق والبربر. وكذلك وضع «عبد الرحمن الداخل» نواة الأسطول بإسبانيا الإسلامية لأنه أقام قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية، أما قيام الأسطول إسبانيا الإسلامية فيعود إلى ما بعد ذلك عندما قام النورمانيون بغزو ثغور الأندلس فعنيت الحكومة بأمر الأسطول وإنشاء السفن وبالتحصينات البحرية، كما أقامت أكبر دار لصناعة السفن في ميناء الوادي الكبير تجاه إشبيلية. وقد اكتسب الجيش كثيرًا من الدرية والمران في تعامله المستمر مع الثورات والغزوات، وقد بذل الناصر جهدًا كبيرًا لتقويته، ومنحه غاية الاهتمام، ووفر له الأسلحة والعتاد، وفي الوقت نفسه اهتم بالأسطول وأنشأ له وحدات جديدة، وجعل مدينة المرية مركزه الرئيسي، وبنى بها أكبر دار صناعة، ووصل عدد الوحدات في زمنه إلى (200) سفينة

مختلفة الأحجام والأنواع، بخلاف أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية، وكان أسطول الناصر من أقوى الأساطيل، وسيطر به على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية. وفي عهد المنصور بن أبي عامر وصل الجيش إسبانيا الإسلامية إلى أقصى قوته وضخامته وقد اعتمد على البربر الذين استقدمهم من بلاد المغرب وغمرهم بعطاياه، وكان في جيشه كثير من المرتزقة والنصارى من المستعربين، وقد بنى المنصور إسبانيا الإسلامية قوة لم تعرفها لا من قبل ولا من بعد، وبلغ عدد الفرسان في زمنه (12100)، وعدد الرجالة (26000) وهذا هو الجيش المرابط الذي كان يتضاعف وقت الصوائف، وقد وصل في إحداها إلى (46000)، وزاد عدد المشاة حتى تجاوز المائة ألف. وقد نجحت القوات الإسلامية في السيطرة على مناطق الحدود؛ بفضل ما تمتعت به من قوة واستعداد، وكانت الخلافة حريصة على أن توفر لها الأسلحة والمؤن وكل ما تحتاج إليه، وكان بعض الحصون في هذه الأماكن أشبه ما يكون بمدينة كاملة. وإلى جانب جيش الحدود وكان هناك جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة يقوده الخليفة بنفسه أو من ينيبه، وإذا خرج الخليفة بنفسه جمع بين قيادة الجيشين. وإذا جاء وقت النفير يأمر الخليفة بالاستعداد، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى «البروز»، وتتوافد الجنود من كل ناحية وتنزل في سهل فسيح يسمى «فحص السرادق» إلى الشمال من قرطبة، ثم يؤتي بسرادق الخليفة ويوضع وسط الفحص، وتنصب فرق الجنود خيامها ثم تقبل قوات المتطوعين حسبة لوجه الله تعالى، ويستمر البروز شهرًا، ثم يخرج الخليفة بجيشه، وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم إليه جيش الثغور، وهنا تبدأ الصائفة أي العملية العسكرية الضيفية التي تستمر شهرين أو نحوها في غزوها لأراضي العدو[1].

---

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 87.

السياسة الداخلية لعبد الرحمن:

تتلخص في سياسة الترغيب والانشقاقات الأولى ثم الصراع ضد الثوار: أصبح عبد الرحمن سيد قرطبة ولكنه لم يعد بعد أميرًا لكل إسبانيا الإسلامية، وعلى ذلك فبمجرد استقراره بدار الإمارة (مقر الولاة) بقرطبة بدأ ينفذ البرنامج الذي رسمه لنفسه والذي يتلخص في تثبيت ملكه والقضاء نهائيًا على مقاومة يوسف الفهري والصميل اللذين رغم انهزامهما بالمصارة، لم ييأسا من السيطرة على الموقف من جديد بعد ذلك كان عليه أن يضع حدًا للنزاعات العصبية والحروب الداخلية التي كانت سببًا في اضطراب البلاد منذ الفتح. أول عمل قام به عبد الرحمن هو تنظيم ذلك الجيش المختلط الذي هيأ له النصر، وأحكام قيادته وتطهيره من العناصر المشكوك في إخلاصها منه، واختيار القواد الذين يمكن الاعتماد عليهم من أحرار وموالي. ثم إنه فتح أبواب الأندلس على مصاريعها لدخول الأمويين الذين نجوا من مطاردة العباسيين رغم خطورة هذا العمل. أما فيما يختص بالمنهزمين في موقعة المصارة فإنه استعمل إزاءهم سياسة الترغيب والمصالحة على سبيل التجربة، وذلك قبل اللجوء إلى العنف. وكذلك عمل على دفن الخصومات العصبية. وكان معنى هذا أنه أراد أن تكون هناك رابطة توحد بين كل عناصر الدولة الأندلسية الجديدة بمعنى أن يكون سكان الجزيرة أندلسيين أولاً وقبل كل شيء، كما يرى برفنسال.

ينفع معالم السياسة الداخلية التي سار عليها عبد الرحمن طيلة حكمه وعن مدى النجاح الذي أحرزه في تثبيت أقدام الأمويين في البلاد وكان مستقبل الإمارة الأموية رهينًا بتصرف عبد الرحمن في هذه السنوات العصيبة، فقد كان غريبًا عن البلاد لا يعرف عن أحوالها الكثير، ولم يكن في استطاعته

أن يطمئن إلى العصبيات التي ساندته في البداية اطمئنانًا كبيرًا، لم يشك في إخلاص موالي بني أمية ولكنهم لم يكونوا أكثر العرب نفوذًا في البلاد، وأما اليمانية فلم يكن تأييدهم له خالصًا إنما كانوا يرغبون في أن يستعيدوا مجدهم القديم وأن يأخذوا ثأرهم كاملاً من الحجازية وكذلك كان حال البربر، وفي نفس الوقت كان الحجازية موتورين مما نالهم من هزيمة وكان على عبد الرحمن أن يجذبهم إليه، ثم هنالك أهل البلاد من مسيحيين ومسلمين.

- وكان عبد الرحمن يعتقد في البداية أن الرحمة والعدل والسلام هي البوتقة الكبيرة التي قد تذوب فيها هذه الخلافات وتذهب بهذه الفتنة لينعم كل فريق في ظله بالنعمة والرحمة. - وكان يريد أن يقر السلام في البلاد لتُعيد إسبانيا الإسلامية وحدتها تحت لواء واحد؛ ولهذا فتح بلاد إسبانيا الإسلامية أمام الأمويين القادمين ومواليهم، وكانت أنباء نصره تنتشر في البلاد. - وظهرت أرستقراطية قرشية في إسبانيا الإسلامية أعفاها من الضرائب ومنحهم الأموال كما أرسل بعثة إلى الشرق برئاسة القاضي معاوية ابن صالح للبحث عن بقايا بني أمية ومواليهم وترغيبهم في الرحيل إلى إسبانيا الإسلامية. ولكن يبدو أن العصبيات المتنازعة لم تكن تفهم لغة السلام بل رأى فيها كل فريق مايبيح له أن يتصرف وفق هواه، فانقلبت سياسة المسالمة هذه إلى حرب ضروس للقضاء على هذه العصبيات، وقضى عبد الرحمن أكثر سني حكمه في مواجهة هذه العصبيات.

حكم ثلاثًا وثلاثين سنة لم يستقر له فيها جنب في قرطبة، ولقد حسب المؤرخون سنوات استقراره في عاصمته فلم تزد على ثلاثة، أما الباقي فقد قضاه في المعسكرات والحملات والحروب. وكان عليه أن يواجه أولاً مشكلة الحجازية في البلاد الذين عارضوه منذ اللحظة الأولى ووقفوا في وجهه

وحاربوه عند قرطبة، ولم تردعهم الهـزيمة التي حلت بهم فعادوا إلى الظهور من جديد. وقد فرَّ يوسف الفهري إلى طليطلة لجمع الأنصار كما فر الصميل إلى سرقسطة لجمع فلول الحجازية وقد استطاعا أن يدخلا قرطبة ثم طُردا منها مرة أخرى. وشـهدت بلاد إسبانيـا الإسلامية كـفاحًا مريرًا بين عبـد الرحمن وبين الحجازية، وهو كفـاح امتد في شرق إسبانيا الإسلاميـة وفي غربها فلمّا مال إلى المسالمة آخر الأمر نزل على حكمها على أن تحتفظ الحجازية بأملاكهم وأموالهم ولا يتعرض لها بسوء، وقد أتاه الوالي بنفسه في قرطبة طائعًا. وقد اعتقد عبـد الرحمن أن القضاء على الحجازية وإخماد فـتنتها معناه أن سلطانه في البلاد لا منازع فيه فبدأ يقطع الخطبـة للمنصور على المنابر. وإذا كان عبد الرحمن قد حل مـشكلة الحجازية كما رأينـا فقد واجه مشكلة اليـمانية الذين ظنوا أن تأييدهم لـلأمير الداخل قـد يبعث لهم مجـدهم القديم (وامتـيازاتهم القديمة) فـلما خاب ظنهم وقـفوا في وجـهه وناوءوه وراحـوا يؤيدون أعداءه الواحد بعد الآخر. فلما بعث المنصور العباسي ابن مغيث الحضرمي وولاه أمر إسبـانيا الإسلامـية 146 هـ/ 863 م، وعبـر البحر من المـغرب إلى إسبـانيا الإسلامية انضم إليه أعـداء عبد الرحمن جميعهم وكـان اليمانيون أشد الناس تأييدا له.

يبدو أن الثورة اليمنية أحرزت نجـاحًا أول الأمر؛ فقد استطاع العلاء بن مغـيث أن يحاصـر عبد الرحـمن شهـورًا في منطقة باجة في غـرب إسبـانيا الإسلامية غيـر أن عبد الرحمن حطم حلقات الحصار وهزم أنصـار العباسيين هزيمة كـبرى، كـمـا قضى على مـن انضم إليهم من أهـل اليمن. وأشـعل اليمانيون نار الثورة مرة أخرى متسترين خلف مـحاولة عباسية أخرى يتزعمها أحد أعمام السفاح، فلم يظفروا بطائل وهزموا مرة أخرى، وظل عبد الرحمن يتعقب اليمانيين بالحـرب حتى قضى على ثورتهم تمامًا 774م. ولـم تكن بقايا

البربر أقل إزعـاجًا لعـبد الرحمن من أهـل اليمن فقـد خاب ظنهم في عـبـ الرحمن أيضًـا وظلوا مادة للفتنة والقلق طيلة حكمه، ويـبدو أن هؤلاء الثوار قد ألفـوا مسألة التـستر خلف دعـوة تهفو إليـها قلوب الأنصار، وكـما تبنى اليمـانية الدعـوة العبـاسية رفع الـبربر راية العصـيان العلوي في الـثورة التي أعلنوها 768م، فقـد ادعى زعيـمهم نسبًـا علويًا والتف حوله البـربر من كل ناحية، وكانت هـذه الثورة معاصرة لثورات البربر الأخـرى في العرب العربي والمغرب الأقصى. واتخذت حروب عبد الرحمن مع البربر طابعًا طريفًا، فقد كانت أشبه بحروب العصابات مرة أخرى، وظل عبد الرحمن يتابعهم بالحرب حتى قتل زعيمهم عام 776 م وتبددت آمالهم ولم يجدوا مـفرًا من الاعتصام والطاعة. ولم يتهـادن عبد الرحمن هذه العناصـر الثائرة أبدًا إنما ظل يتعقـبها بالحرب كلما أطلت برأسها حتى استقـام له زمامها آخر الأمر ليخرج من هذا الجهاد بجبـهة موحدة قد استقام له أمـرها. وأظهرت هذه المحنة صلابة عوده وكشفـت عن قدراته وأعلت من قدره بين المعاصـرين فتمكنت إمارته النـاشئة من أن تثبت وجودها وتضـمن لنفسها البقـاء. ويكاد الأمراء الذين ظهروا في الحياة الإسلامية منذ هذا الوقت فصـاعدًا أن يسيروا على مخطط داخلي واحد أساسه إخضاع جميع عناصر المقاومـة كخطوة أولى لتحقيق الاستقلال وتوطيد دعائم الإمـارة، خاض الطولونيـون والإخشـيديون في مـصر حروبًا داخـلية مشـابهة ليـبقى سلطانهم ويرتفع صـيتهم، وكـذلك فعل الأغالـبة في تونس والأدارسة في المغـرب الأقصى والكلبيـون في صقلية. ولكـننا نريد أن نعرف موقف عبد الرحـمن من القوة الإسلامية النامية، من أهل البـلاد ثم موقفهم من هذه المحاولات التي بذلها خلال مدة حكمه. كانت هذه الجالية الإسلامية تزداد عـددًا على مر الأيام بـاطراد الدخول في الإسـلام، ويتـبين من الوثائق الأندلسية أن عناصـر المولدين من مسلمي إسبانيا لم تشـترك في هذه الحوادث

الدامية إنما اعتصموا بالهدوء سواء في المدن أو الريف. فقد كانوا يعطفون على عبد الرحمن إذ يرونه يخلصهم من طغيان الحجازية واليمانية والبربر، وحتى إذا تخلص عبد الرحمن من عناصر الشعب هذه كلها مهدت الطريق لهؤلاء المولدين أصحاب المصلحة الحقيقية في البلاد لينعموا بالهدوء والاستقرار وليعلو صوتهم في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في البلاد. ورغم ندرة الوثائق نعتقد أن عبد الرحمن كان يعرف مكمن القوة فيهم وأنهم مستقبل الأمة وعدتها، وكان يعرف كيف يسترضيهم وكيف يجعلهم يؤمنون بأن مستقبلهم مرتبط بمصيره فأمنوا له وأصبحوا مصدر قوته (وتكاد الإمارات المستقلة التي عرفتها الحياة الإسلامية تشترك في هذا الاتجاه، كلها عملت على كسب ود أهل البلاد الأصليين والأخذ بيدهم والاعتماد على تأييدهم، هكذا فعل الطولونيون والرخشيديون في مصر، وهو نفس اتجاه كل من الأغالبة والأدارسة، حتى ليرى بعض المؤرخين أن هذه الإمارات هي تعبير لهذه الجماهير التي أسلمت عن حقها المشروع في الحرية والمساواة). ولكن إذا كان عبد الرحمن قد قضى أغلب سنين حكمه في هذا الصراع العنيف محاربًا البربر والعرب، فما هي القوة التي اعتمدت عليها في هذا النضال؟ كان اتجاه عبد الرحمن لا يكاد يشذ عن منطلق كل الإمارات الإسلامية التي عرفها التاريخ، من الاتجاه إلى إنشاء جيش قائم يكون أداة الأمير وعدته وسنده في جهوده لتثبيت سلطانه الداخلي والخارجي هو عصبية الإمارة وهو عدتها وبقاؤها يعتمد على قوة هذا الجيش وقدرته على الصمود، وأفول نجم هذه الإمارات يعود إلى تفوق هذه العصبية بضعف قوة الجيش. كان الظهور الطولوني والإخشيدي يعتمد على جيش قوي وكان هذا الجيش عدتهم في نضالهم من أجل القوة والنفوذ، وكان جيش الأغالبة أداتهم في سياستهم الداخلية وفي محاولاتهم فتح صقلية، وكذلك كان الأدارسة. لهذا اتجه عبد

الرحمن منذ اللحظة الأولى التي توطد فيها سلطانه إلى إنشاء الجيش القائم الذي لا يتكون من العرب والبربر إنما كان يتألف من الجنود الصقالبة الذين يشترون بالمال ويدربون على الطاعة العمياء للدولة والإخلاص لها. وقد استطاع عبد الرحمن أن يكوِّن جيشًا من هؤلاء المرتزقة بلغ عددهم نحواً من أربعين ألفًا وقفوا من خلفه في حروبه كلها وخدموه أجلّ خدمة وتفانوا في الإخلاص. بدأت سياسة الترغيب التي انتهجها عبد الرحمن بمجيء أعداد من المهاجرين الجدد واستقرارهم بإسبانيا. وذلك أن أنباء نجاح عبد الرحمن وانتصاراته في إسبانيا الإسلامية سرت بسرعة في المغرب العربي والمشرق، فأسرع كثير من أفراد أسرته المنكوبة للحاق به بالجزيرة، وواصل غيرهم الطريق إلى هناك طوال عهده المديد. وكان عبد الرحمن يحسن استقبال أقربائه ويغمرهم بالهدايا والأعطيات ومظاهر التشريف، وسيكوِّن هؤلاء بقرطبة طبقة ملكية أرستقراطية ستعرف باسم «القريشيون» بدلاً من الأمويين: هؤلاء كانت لهم كثير من الامتيازات فهم معفون من بعض الأعباء المالية، ولهم حق حضور الحفلات الرسمية، كما كانت لهم أرزاق (مرتبات) كبيرة. ولكي يشجع هجرة الأمويين ومواليهم إلى الأندلس أرسل عبد الرحمن بعثة إلى المشرق برئاسة القاضي معاوية بن صالح الحضرمي وكلفه بإحضار أختيه، وهذا لم يستطع القاضي أن يفعله إذ أنهما كانتا تعيشان عيشة هادئة وتلقيان معاملة طيبة من جهة العباسيين، وتتمتعان بثروة كبيرة فعز عليهما مغادرة الشام إلى أقصى الغرب من العالم الإسلامي حيث كان لأخيهما ذلك المركز الكبير. وبعد قليل من استقرار عبد الرحمن بقرطبة رأى أن سياسة المسالمة والمصالحة لا تأت إلا بنتائج عكسية: فبتركه أبواب الأندلس مفتوحة والميدان حرًا أمام الساخطين والمغامرين الذين كانت تعج بهم إسبانيا كان من الطبيعي أن يتعرض لأخطر الشرور، فكان لابد له من انتهاج سياسة حازمة شديدة.

فمنذ انهزام الوالي القديم ومستشاره الصميل قرب أبواب قرطبة لم تتوقف نشاطهما فذهب الوالي إلى طليطلة ليحشد جيشًا بينما سار الصميل إلى إقليم جيان حيث كان جنده على أمل تعبئة أعوانه من القيسية. ولحق يوسف ومعه جند سرقسطة وطليطلة بالصميل ثم تقدم الاثنان ببعض قواتهما عملاً على اجتذاب عبد الرحمن نحوهما بينما دبرا ذهاب بقية قواتهما إلى قرطبة للاستيلاء عليها فجأة. وفعلاً كادت هذه الخطة أن تنجح بل أن العاصمة وقعت بين يدي ابن يوسف الفهري، وهو أبو زيد، ولكن هذا الأخير عندما شعر بعودة عبد الرحمن لمهاجمته لم يصر على تملك قرطبة بل غادرها ولحق أبيه بالبيرة.

بعد ذلك قام عبد الرحمن بمطاردة يوسف عبر شرق إسبانيا الإسلامية حتى غرناطة وربما دارت مباحثات بينهما، إذا انتهى الأمر بأن طلب يوسف والصميل الأمان من الأمير الأموي واشترطا أن يحتفظا بممتلكاتهما. ووافق الأمير الذي فضل ألا ينهك قواه في مناحرة خصميه، واشترط هو الآخر على يوسف أن يدفع إليه بابنيه كرهينة. ورجع وفي صحبته الوالي القديم ومستشاره إلى قرطبة 139 هـ/ 756 - 757 م. وبخضوع يوسف والصميل اعتبر عبد الرحمن أن سلطانه أصبح غير منازع بإسبانيا، فأعلن اللعنة على العباسيين من أعلى المنابر، وقطع الخطبة لأبي جعفر المنصور في مساجد إسبانيا الإسلامية. وفي قرطبة عاش يوسف والصميل لمدة من الوقت تحوطهما مظاهر التبجيل والاحترام وكان الأمير لا يستنكف استشارتهما في المناسبات والاستماع إلى نصحهما. ولكن حدث بعد ذلك أن حنَّ يوسف إلى سلطانه القديم وشجعه بعض الساخطين ممن فقدوا نفوذهم القديم ففر وأعلن العصيان ضد عبد الرحمن ولجأ إلى ماردة، وهناك جمع جيشًا كبيرًا تعداده حوالي 20 ألف رجل أغلبهم من البربر وساروا على رأسهم نحو قرطبة. ولكنه انهزم في

الطريق أمام قوات أمراء إشبيلية من أتباع عبد الرحمن (من أقربائه المهاجرين حديثًا) واضطر إلى الهرب إلى إقليم طليطلة، حيث لقي نهاية دامية إذ مات قتيلاً على أيدي أعوانه 142 هـ/ 759 - 760 م، وأرسل رأسه إلى عبد الرحمن. ورأى الأموي أن يتخلص من أعدائه فأمر بقتل أبي زيد بن يوسف وسجن أخيه (الشاب) وكذلك تخلص من الصميل وقضى عليه في السجن حيث كان محبوسًا.

خلفاء عبد الرحمن:

وكان خلفاء عبد الرحمن الأول أمناء على تراثه في جميع المظاهر خصوصًا في السياسة الإدارية (والتنظيمات الإدارية) وقد وصلت هذه التنظيمات إلى القمة في عهد عبد الرحمن الأوسط، فقد استقرت في عهده نظم الحكم واتخذت طابعًا أندلسيًا صرفًا، وقد اتجه عبد الرحمن في تنظيمه الإداري إلى (التركيز)، تركيز السلطة كلها في يديه فلا يتم شيء دون موافقته، وتركزت أعمال الدولة كلها في قرطبة في قصر الأمير وفيها دواوين الحكومة (وفيها شارات الحكم)، دور الضرب، ودور الطراز. وضمت حكومة الأمويين في عهد عبد الرحمن الثاني طائفة من الإداريين الأكفاء ومن أبرزهم في تاريخ إسبانيا الإسلامية في ذلك الوقت عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وكان جنديًا عظيمًا وكاتبًا بليغًا، وخلفه في منصب الحجابة رجال ليسوا أقل منه قدرة أو كفاية مثل عبد العزيز بن أبي عبدة واسحق بن المنذر وغيرهم. وتبلورت نظم البلاط ووضعت للبروتوكول أصولاً وقواعد للطبقة الاجتماعية، ووصل تنظيم الدواوين إلى القمة. وكان أهم هذه الدواوين ديوان الخزانة وكان يعهد به إلى أمناء موثوق بهم. وكان الكتاب والوزراء برئاسة الحاجب يجتمعون في المجلس الذي بناه عبد الرحمن في مدخل قصره

يتلقون الرسائل من كافة الـولايات ويصدرون الأوامر، وكان لهؤلاء الموظفين رواتب ثابتة تصل إلى 350 دينار في الشهـر. وأنشئت الشرطة وكان يرأسـها صاحب المدينة ونظمت تنظيـمًا دقيقًا وظهـرت وظيفة المحتـسب وكان يسمى صاحب السوق. وظفـر الجيش من عناية عبد الرحمن الثـاني بمثل ما ظفر به في عهد هشام والحكم، إذ أبقى على الصقالبة الذين ورثهم عن أبيه وزاد من عددهم بشراء طوائف جديدة من فرنسا وغسقونيا وبلاد الفرنج ومختلف ثغور البحر الأبيض المتـوسط. وكان يؤتى بهم أطفالاً ويربون تربية إسلامـية. وقد أضيفت إلى الجيش في عهده نحو 5000 من المشاة و3000 من الفرسان و2000 من حملة الرماح ونظم الجيش على أحـدث النظم، وظهرت فوق من المرتزقة يقدمها الإقطاعيون إذا تطلب الأمـر. وظهر الأسطول الأموي بصورة واضحة خصـوصًا بعد الغارة النورمـاندية التي وقعت 844 م وأنشئت دار صناعة في إشبيلية. ويبدو أن هذا الأسطول جاوز مرحـلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم فبدأ يقوم بعمليـات بحرية خارج مياه الأندلس الإقليـمية. في 848 م أغارت نحو 300 سفينة من هذا الأسطول العظيم على جزر ميورقـة ومنورقة وضمتها إلى ملك بني أميـة، كما خرج أسطول إسـبانيا الإسـلامية آخر من ثغـر طركونة والجزر الشرقيـة وأغار على ساحل فرنسا الجنوبي فهوجـمت مرسيليا والمناطق المحيطة بها، وتوسع هذا الأسطول العربي في عمليـاته البحرية فأغارت سفنه على شواطئ جليقية بقيادة أمير البحـر عبد الرحمن بن مغيث. واشتهر أمراء هذا العهد خصـوصًا عبد الرحمن الثاني بحب البناء وهو مـن تقاليد الأمويين عادة، ففي عهد هذا الأمير أنشئت مدينة مـرسية وقلعة ماردة وحصن إشبيلية كما أنشئت قنطرة جديدة على الوادي الكبيـر ووسع القصر وحملت إليه المياه من جـبال قـرطبة، وبدئ في بناء الجـامع بمدينة جيـان 825 م ووسع جامع إشبيلية وكذلك المسجـد الجامع في قرطبة الذي وسع مرتين في 833 والأخرى

في 848 م. وتحقق للبلاد استقلال حقيـقي في عهد صاحبنا عبد الرحمن، لم يستطع أن يتطاول إليها أحد من أمـراء المسلمين، وظهر عبد الرحمن الأوسط كأغنى أمراء البـحر الأبيض المتوسط فقـد ترك له والده الحكم بن هشام دولة مستقرة وأموالاً وفيرةً. وارتفعت الجباية من 600 ألف دينار في السنة في عهد عبـد الحكم إلى نحـو مليون دينار في عـهده وكـان ينفق دون حسـاب على الموظفين والجند والمرافق العامـة. طبيعة بلاد الأندلس لهـا حتميـة واضحة لا تظهر إلا في أوقـات ضعفت النظام السيـاسي فشبه الجزيرة يتكـون من هضبة قديمة تقطعـها سلاسل من الجبـال مستقـرة تحصر بينهـا وديان طويلة تمتد من الشرق إلى الغـرب. كذلك تختـرقها أنهار مـستعـرضة تجري في غالبـها من الشرق إلى الغـرب في وديان تحفهـا الهضاب أو الجبـال. ومن شأن بلاد هذا مسطحها أن تميل إلى الحكم اللامركزي، على أن تخضع هذه الأقاليم لحكومة مركـزية قادرة فعـالة، أما إذا ضعـفت هذه الحكومة أو تهـاونت فتقع الفـرقة وتستقل هذه الجـزئيات الجغرافيـة كل بمصيرها. وقد منيت البـلاد في العصر الإسلامي بانقسامين: انقسمت بعد عبد الرحمن الأوسط وظلت منقسمة حتى أعاد إليـها عـبد الرحمن الناصـر وحدتهـا القوميـة وأعاد للحكومـة المركزية سلطانها. ثم انقسـمت مرة أخرى بعد هشام المؤيد وسقـوط الخلافة الأموية، ولكنها لم تجد أحدًا في مقدرة الناصر أو كفايتـه لتستعيد وحدتها من جديد، وظلت تتنازعها عـوامل الفرقة والانقسام حتى نمت إسـبانيا المسيحيـة لتقضي على مـا بقي من رمق المسلمين. لولا عبـد الرحمن الناصـر لتكررت مـأساة غرناطـة، ولو كانت الإمارات المسـيحـية في مـثل قوتهـا على عهد فـردناند وإيزابلا لشهد القرن التاسع الميـلادي مصرع الإسلام في البلاد. على كل حال منيت البلاد بعد عبـد الرحمن الثاني بأمراء ضعاف غيـر قادرين، لم يرتفعوا إلى مستوى آبائهم، إنما انصرفوا إلى اللهـو فضعفت السلطة المركزية وظهرت

آثار التفتت الجغرافي واضيفت إليها مظاهر التفتت العنصري الذي عرفته البلاد وانقسامها إلى عرب بربر ومولدين وبقـايا القوط. أما الغرب فقد تكونت لهم دويلات في كثيـر من المدن - وهو أمر لم تشهده البـلاد من قبل. وأهم الدول دولة بني حجاج في إشبيلية وكانوا عـربًا (خلصًا) من قبيلة لخم اليمنية وكانوا يعتـزون بنسبهم القديم وأن يكون لهم مـا للأمير الأموي من هيـبة وأن يكون لدولتهم من العظمة والقوة ما لدولة بني أمـية. فنظم إبراهيم بن حجاج دولته على مـثال الدولة الأمويـة وأحاط نفســه بهالة من الأدباء والمـؤرخين ورجال الفن، وقد شجع العلـوم والآداب والفنون، فكان من رجال حاشيتـه ابن عبد ربه صاحب العـقد الفريد كمـا استقدم قـمر البغـدادية. وقد ظلت دولة بني حجاج قائمة بإشبيلية حتى جاء الناصر فقضى عليها، وستظهر مرة أخرى في عصر سقوط الخـلافة. أما البربر فقد كانوا رغم هجراتهم السـابقة أكثر عددًا من العرب واستبد بهم السخط والعصيـان فخلعوا طاعة أمراء بني أمية وعادوا إلى النظام القـبلي القديم واحتلوا مـواقع عظيمة الـشأن في الأندلس نفســها كمـدينة جيـان. وكانت أسـرة ذي النون البربرية أشـهر من قام مـن البربر، وكانت تتألف من عميـدها موسى وأولاده الثلاثة، ودهمت هذه الأسرة كلها بالسيف والـنار وعاثت في جمـيع نواحيـها فسـادًا تحرق وتنهب وتقـتل أينما سارت. وكـان مولدو إسبـانيا الإسلامـية الذين صقلـتهم مدنيـة العرب أقل وحشية من البربر وإن لم يقلوا عنهـم في بغض الحكومة فاستولوا على ولاية الجـوف في الزاوية الجنوبية الغـربيـة في شبـه الجزيرة وملكوا عـددًا من المدن والولايات واستقلوا بها.

وكان ابن حفصون أكثـر هؤلاء قوة وأشدهم بأسًا وكان ينزل كورة رية، وقام في معـقله (ببشتر) مـثيرًا سكان الجبال بغـرناطة وظل يحكم ويمد نفوذه وسطوته على البلاد الـتي حوله. بل لقد انبـسطت خيله حتى أصـبحت على

بعد مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها أحد، وظل ابن حفصون على هذه القوة حتى ارتد عن الإسلام ليغري المستعربين بالانضمام إليه، فكان هذا بداية نهايته فقد انفض المسلمون من حوله ولم يبق به النصارى فضعف أمره وزالت دولته على يد الناصر فيما بعد. هكذا كان حال الأندلس في عصر الضعف هذا وأصبحت ممزقة الأوصال تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضياع منها بالولايات، وارتدت الأمور على بني أمية حلكة وظلامًا وتقلص حكمهم حتى صار يشمل قرطبة وحدها، وسيظل هذا حالها حتى تبعث العناية عبد الرحمن الناصر ليخلصها من بليتها ويرد إليها وحدتها . . . وجدت الأندلس في هذا الوقت من يخلصها مثل عبد الرحمن ولكنها بعد زوال الخلافة لن تجد هذا المخلص[1]. أما فيما يتعلق بالفتنة الداخلية فإنه يلاحظ أن عبد الرحمن الناصر قدر له أن يجني ثمار ما بذله السابقون عليه في عصر الإمارة الأخير، فقد أسهموا بنصيب كبير في الكفاح في الجبهة الداخلية، لكن عبد الرحمن وحده هو الذي جنى الثمار وأتم الحلقات الأخيرة. وكانت الحالة النفسية لجماهير الناس في الأندلس أشبه بحالتهم النفسية بالأمس في آخر عصر الولاة في السنوات التي برز فيها عبد الرحمن الداخل على مسرح الأحداث، ملوا الخروج والعصيان وكانوا في حاجة إلى شخصية كبيرة القلب تجمعهم، كانت البلاد أشد حاجة إلى القائد السمح التي تتوحد خلفه النزعات والنزوات. وقد ضاق الناس بالاضطرابات الداخلية وما سببته للبلاد من ضائقات فقد أضرت سياسة التجزئة بالحالة الاقتصادية وعرقلت التجارة الداخلية والخارجية، وأدت إلى انخفاض مستوى الدخل وأشاعت القلق بين الناس، وثقل العبء فعلاً على الجماهير التي كانت تتوق إلى عهد تتنسم فيه الراحة. لذلك منحت عبد الرحمن تأييدها المطلق وحبها

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 104.

الخالص وتعلقت به أمانيها في الاستقرار. وكانت سياسة عبد الرحمن في هذا الميدان سياسة متلائمة مع الأوضاع النفسية لجماهير الناس وللثوار أنفسهم، فقد كان يعلم أن أكثر الثوار من أسر وعصبيات قديمة ذهب عنها سلطانها وولي أوانها تريد إشارة من شخصية أكبر منها نشأة وأوفر قوة. هذه السياسة تسمى بسياسة الاستئمان وهي مزيج من الدهاء والمعرفة بطبائع البشر ومزيد من القوة والاستعداد، فقد كان يخرج للثوار ويحاصرهم ثم يعرض عليهم الأمان والسماحة والعيش الكريم، وكانوا يصدقونه بما يعد لما عرف به من متانة الخلق والاستقامة، وكان يفي بما يعد فعلاً فيحمل الثوار إلى قرطبة ويوفر لهم الأموال والمعيشة الكريمة ويعفو عنهم ويقربهم فلم يفكروا في الخروج عليه بعد ذلك. وانتشرت هذه السيرة الطيبة في أرجاء البلاد كلها وعملت عملها في نفوس الثوار الذين ملوا الثورة، وكانوا يريدون أن يكون استسلامهم كريمًا يحفظ لهم أموالهم وعزهم القديم ومجدهم الزائل. وقد أحرزت هذه السياسة نجاحًا كبيراً واستطاع عبد الرحمن في أكثر المناسبات أن يستصفي أغلب الثوار وأن يحل عقدهم النفسية وأن يجعلهم من أخلص الأتباع.

إلا أن هذه السياسة لم تنجح في مناسبتين، لم تنجح في القضاء على فتنة بني حجاج في إشبيلية، أو ثورة ابن حفصون الشهيرة. واضطر عبد الرحمن في هاتين المناسبتين أن يخوض غمار الحرب فعلاً، فاشتبك قائد جيشه جعفر بن عبد الغفار مع هؤلاء الثوار في معركة دامية. لم تنتصر قوات الخليفة أول الأمر، فعاود عبد الرحمن الكرة بقيادة أبي العباس أحمد بن أبي عبدة، وتفانت جيوش الخليفة في إخلاصها وأحرقت أجفان السيوف حتى يكون النصر أو الموت فاستطاعت أن تطيح ببني حجاج وأن تعيد إشبيلية إلى حوزة الخلافة. وبقي أمامه لكي يستصفي الثورة كلها أن يقضي على ما بقي

من قوات لابن حفصون فقد استمالت سياسة المسألة أغلب أتباع هذا الثائر، ومن عام 913 م اتجه عبد الرحمن إلى مقر سلطان عمر بن حفصون في إقليم رية فاستسلم له رؤساء النصارى والمستعربين واثقين في أمانته، ثم استولى على قرمونة، وفي 917 م مات عمر بن حفصون الذي ظل ثلاثين سنة في ثورة دامية وخلفه ولداه جعفر وسليمان، غير أن عبد الرحمن استطاع 927 م أن يضع للمسألة خاتمة بالاستيلاء على حصن بيشتر آخر القلاع الثائرة واستسلم بنو حفصون. ولم يبخل عليهم عبد الرحمن بالمعاملة الكريمة، ثم استسلم ثائر آخر يدعى عبد الرحمن بن مروان الجلليقي في منطقة ماردة، وفي 932م استسلمت طليطلة فانتهت الفتن وذاقت البلاد الطمأنينة وعادت للإمارة هيبتها القديمة واستردت البلاد وحدتها القومية.

الناصر والفاطميون:

قدر لعبد الرحمن أن يحمي البلاد من خطر آخر فتزداد هيبته؛ ونعني به الخطر الفاطمي، وقد نجح الفاطميون في إقامة خلافة فاطمية في تونس آخر القرن الثالث الهجري معتمدين على تأييد طوائف من أهل المغرب الأوسط كتأييد الكتاميين والصنهاجيين واستطاعوا القضاء على بني الأغلب وبني رستم، ثم اتجهوا بفتوحهم صوب المغرب ودخلت قواتهم المغرب الأقصى ووصلت موجات الفتح الفاطمي إلى الذروة، وفي عهد جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز الذي توغل حتى ساحل المحيط. وكانت البحرية الفاطمية في ذلك الوقت قد بلغت أوج القوة وبدأت توسع عملياتها البحرية وتشتبك مع الأمويين في البحر، ورأى عبد الرحمن بلاده مهددة من البر والبحر في وقت واحد. بل اكتشفت أن الفاطميين أرادوا أن يتسللوا إلى الجبهة الداخلية وأن ينشروا دعايتهم في البلاد حتى إذا ضمنوا الأنصار وتفرقت الجبهة الداخلية

سهل الأمر على القــر ـ البرية لتجعل من إسبـانيا الإسلامية ولاية فـاطمية، فأرسلوا الدعـاة إلى إسبانيا الإسـلامية مستـخفين في زي التجار ولـهم خبرة بطبـائع الناس. ويقال إن مـن بينهم العالم الجـغـرافي الشهـير «ابن حـوقل» صاحب كتاب «المسالك والممالك وقد وفد على إسبانيا الإسلامية في أيام عبد الرحمن الناصر وأعـد تقريرًا عن أحوال إسبانيـا الإسلامية قدمـه إلى الخليفة الفاطمي وسم فيـه أمراء البيت الأموي بالضعف والعجـز وكشف عن مواطن الخلل في مـجتـمع إسبـانيا الإسـلاميـة وانتـهى إلى القول بسـهولة غـزوها وامتلاكها. وثمة شخصيـة أخرى كانت من رسل الفاطميين وجواسيسهم وإن كانت كتب التراجم لا تشـير إليها إلا إشارات عابرة وهي شخصـية أبو اليسر الرياضي وكان فيلسوفًا متكاملاً يصل إلى قلوب الناس بالجدل والمنطق، وكان يتحـدث في الفلسفة والرياضـيات، ويقال إنه هو الذي أدخل رسـائل إخوان الصفاء إلى إسبانيا الإسلامية.

يزعم المؤرخـون أنه ترك أثرًا كبـيرًا على مـحمـد بن مسـرة فيلـسوف الأندلس وأن الرجلين عملا كثيرًا لتمهيد الأمر أيام الفاطميين في البلاد، وكان من الممكن أن تنتهي هذه الدعاية السرية إذا أضيفت إليها الاستعدادات البحرية والبرية إلى النجاح لو كانت إسبانيا الإسلاميـة يحكمها شخص آخر غير عبد الرحـمن. وقد بدأ عـبد الرحـمن يضع هيكل سـياسـة مناهضة لهـذا الخطر الفاطمي والقضاء عليه، وكان عبد الرحمن يصطنع الأمراء الخارجين ويعطيهم من المال والقوة بدون حسـاب، وبهذا كسب ولاء أمراء منطقة سبـتة وطنجة. بل نرى عبد الرحـمن للمرة الأولى في تاريخ إسبانيا الإسلامـية يرسل قوات إسبانيا الإسلامية عبر المضـيق لتستولي على هذا الشريط لتأمين سلامة البلاد، فكان في الحقـيقة تحولاً من الـسلبية إلى الإيجابيـة. كما اسـتطاع بأمواله أن يشتـري ولاء فريق من أهل المغرب الأقـصى، فكما اعتـمد الفاطمـيون على

الصنهاجية والكتامية جذب إسبانيا الإسلامية إليهم الزناتيين وحالفوهم فكانوا خير أعوانهم، واستمر هذا التحالف في إسبانيا الإسلامية الزناتي فترة طويلة وكان محوراً للسياسة في إسبانيا الإسلامية في المغرب. وقد أثمرت سياسة عبد الرحمن ثماراً سريعة، وما كاد جوهر يعود إلى القيروان حتى أعلن الزناتيون العصيان وقوضوا دعائم الحكم الفاطمي يؤيدهم الأمراء المحليون الذين حالفوا بني أمية. ووجد الفاطميون أنفسهم يجابهون خطراً أموياً متزايداً ينحدر من الغرب، وخطراً بحرياً يهدد سواحل المغرب العربي نفسها وثورات داخلية في تونس يشعلها الفقهاء المالكيون، فلم يجدوا بداً من الاتجاه صوب الشرق لفتح مصر واتخاذها داراً للخلافة.

وفق عبد الرحمن في هذه المعركة الفاطمية توفيقه في المعركة الداخلية، وإن كان الفاطميون قد لعبوا في تاريخ هذه الفترة دوراً لا يذكر لهم بالخير، فقد كان ظهورهم في المغرب بلاء على العالم الإسلامي كله، فقد أشاعوا الانقسام في الحياة الإسلامية في وقت كانت فيه نذر المد الصليبي على الأبواب، وفتحوا أمام الأمويين جبهة داخلية شغلتهم عن التفرغ كلية لمعركه الفرنجة، فلو كانوا أمنوا جبهة المغرب وألقوا وزنهم كله في الجبهة الشمالية لكان للنزاع بين الأمويين وبين الممالك المسيحية في البلاد شأن آخر. كان طبيعياً بعد أن توحدت الجبهة الوطنية أن ينصرف عبد الرحمن إلى الجهاد من جديد وأن يتابع نفس الخطة التي تابعوها آباؤه من قبل، فهذا منطق تمليه الأحداث في البلاد. ويلاحظ من يكتبون في التاريخ القومي الإسباني عامة التماثل الغريب في التطور بين الإمارات النصرانية والإمارات الإسلامية وكليهما يسير جنباً إلى جنب في خط تطور واحد، فالوحدة والقوة في الجنوب تقابلها مظاهر أيضاً للوحدة مألوفة في الشمال وقدرة على الحركة والمناورة. وكان واضحاً أن أقدر القوتين على النصر أقدرها على الثبات والصمود

والاحتفاظ بالوحدة وقتًا أطول. ولعل هذا يفسر تقهقر الإسلام وتفوق المسيحية بعد سقوط الخلافة مباشرة. ومن الغريب أن مؤرخينا القدامى لا يقدرون هذه الإمارات حق قدرها؛ فهم يحاولون دائمًا أن يصوروها على أنها مجرد مراكز للثوار لا أهمية ولا قوة، ولا ندري كيف استطاعت هذه الشراذم والقوى المهلهلة أن تحرز النصر على المسلمين في معركة الحياة أو الموت. على كل حال شهد عصر عبد الرحمن تطورًا كبيرًا في هذه الإمارات المسيحية الواقعة في الشمال سواء في الناحية الغربية أو الشرقية، في المغرب ظهرت مملكة ليون ووصلت إلى قمة الاتساع في عهد ملكها الفونسو الثالث فاحتلت مدينة سمورة ووصلت في آخر عهد هذا الملك إلى دوبرة. ووصلت مملكة ليون إلى قمة التطور في عهد أردونيو خليفة الفونسو. وشهد الشرق تطورًا مماثلاً حينما قامت الإمارات النصرانية مرتكزة على قواعدها في الجبال متصلة أشد الاتصال بسائر القوى المسيحية عبر البرانس بالبابوية والإمبراطورية، متشبثة بالفكر الغربي والحضارة الغربية، وكانت أقوى الإمارات في منطقة الشرق إمارات نافار وعاصمتها بمبلونة[1]. وشهد عبد الرحمن تطورًا بالغ الخطورة في تاريخ هاتين الإمارتين، فقد توحدت جهود أردونيو ملك ليون وسانشو ملك نافار لمقاومة القوى الإسلامية. وهو اتحاد أقرب شبهًا باتحاد فرديناند وإيزابيلا فيما بعد. غير أن الاتحاد الأول هذا صادف تجمعًا إسلاميًا قويًا فوقف في سبيله، وصادف الاتحاد الثاني تجمعًا إسلاميًا ممزق الأوصال متهالكًا استطاع أن ينال منه. على كل حال خرج عبد الرحمن لمواجهة هذا الاتحاد الجديد واستطاع أن يوقع به الهزائم العسكرية المتلاحقة، فخرج عبد الرحمن في حملة كبيرة 920 م. وأوقع بقوات الأوروبيين مجتمعين وتمكن من أن يستعيد بلادًا كثيرةً، وحاول الملكان مرة أخرى أن ينتهزا فرصة انشغال عبد

---

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 141.

الرحمن بالاستيلاء على بعض حصون نهر دويرة فهاجموا الحصون الإسلامية على نهر أيبرو ولكن عبد الرحمن عاد إلى لقائهما مرة أخرى وأوقع بهما الهزيمة، وكانت وقائعهما مع عبد الرحمن نصرًا كاملاً للقوى الإسلامية ونتيجة حتمية للوحدة القومية التي تحققت في البلاد. ولم يستخدم عبد الرحمن السيف فحسب بل استخدم الأساليب الدبلوماسية لفض الحلف بين الملكين. ويبدو أنه نجح في هذا واستطاع أن يحررهما من حلفائها وأن يضرب كل إمارة على حدة ضربات قاتلة.

وكانت نتيجة هذا أنه في 950 م أصبح عبد الرحمن السيد الفعلي للمجتمع الأنيبيري كله مسلميه ومسيحييه. فالبلاد الإسلامية الخارجة عن طاعته أخضعها، والممالك المسيحية حالف بعضها وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه بل جعلهم لا يلجأون كعدو بل كصديق. ويكفي للدلالة على هذا أن ملك فاغار سانشو طلب من قرطبة طبيبا يعالجه من سمنته المفرطة فأرسل إليه عبد الرحمن طبيبًا له دراية بالطب والسياسة معًا وهو حمداوي ابن شيروط اليهودي، وكان من نتيجة سفارته أن قدم وفد إلى قرطبة على رأسه سانشو نفسه حيث أكرم عبد الرحمن وفادته وندب الأطباء لعلاجه. وكان من أثر ذلك عقد محالفة نال المسلمون من ورائها مغانم كثيرة. ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرغونة يفدون إلى قرطبة ويحتكمون إلى الخليفة ليقر السلام بينهم. من هذا نستطيع أن نرى كيف تمكن عبد الرحمن بعد سنوات طويلة من الجهد والدأب أن يصبح السيد الأعلى للبلاد كلها. بل أصبح عبد الرحمن من أشهر الشخصيات في تاريخ غرب أوروبا في هذه الفترة. تخطى صيته شبه الجزيرة وترامى إلى بلاد غالة بل وصل إلى ألمانيا ووصل صيته إلى القسطنطينية وتوافد من كل أنحاء أوروبا على ذلك البلد العظيم: وكان هذا الرجل يعرف كيف يكسب الناس وكيف يفرض احترام

شخصه واحترام بلاده، وأصبحت قرطبة ليست عاصمة الإسلام في الغرب الإسلامي كله إنما عاصمة الحضارة في أوروبا كلها. بعد هذه الجهود وهذا النصر المتتابع شعر عبد الرحمن بقوته في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي، أحس بالانتصارات التي أحرزها في معاركه وكيف أذل الأعداء، وشهد مجتمع إسبانيا الإسلامية في عهده قمة التطور السياسي والاجتماعي والثقافي. ورأى قرطبة كعاصمة إسلامية تعلو على القاهرة أو بغداد، وحق لعبد الرحمن أن يقارن نفسه بأحوال العباسيين في بغداد الذين استبد بهم الترك واضطربت أمورهم وساءت أحوالهم، ورأى جهود الفاطميين المستميتة في إقامة خلافة علوية؛ لذلك قرر أن يضع الأندلس في وضعها الصحيح من الحياة الإسلامية وذلك بإعلان نفسه خليفة في يناير 929 رمضان 316 هـ. وقد ترك ذلك أثرًا في النقوش الإسلامية في إسبانيا الإسلامية، ففي نقوش المسجد الجامع في إشبيلية الذي شيد عام 828 وجامع ماردة الذي شيد عام 835 لم يتخذ عبد الرحمن الأوسط غير لقب أمير ولكنه ابتداء من عام 929 حتى آخر العهد بالخلافة اتخذ الأمويون لقب أمير المؤمنين ولقب الناصر لدين الله والمستنصر بالله أو المؤيد. وفي الحق كان الغرب الإسلامي في حاجة إلى الزعامة وقوة التوجيه فملأت الخلافة الأموية هذا الفراغ الكبير، وكان إعلانًا لاستقلال إسبانيا الإسلامية سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا. وقد أضفت الخلافة على الأمويين واجبًا جديدًا ورسالة جديدة في الزود عن الإسلام وحماية تراثه. ولا يمكن أن يختتم القول في عبد الرحمن دون التحدث عن سياسته الإدارية في حكم البلاد فبها يرجع ما أحرزه من نجاح وتوفيق. كانت سياسة عبد الرحمن وليدة التجربة المريرة التي مرت بها البلاد في فترة الضعف من تاريخ الإمارة. فقد رأى أن الاستقلال الذاتي للولايات هو سبب التفرقة وهو الذي شجع على الفتن وأكسب الولاة حقوقًا إقليمية لم تكن لهم من قبل؛

لذلك نراه يعمل على الحد من استقلال الولايات وتقوية سلطاته المركزية، كما عمل على تقليم أظافر البيوتات الكبيرة حتى لا تعود إلى سابق عهدها من التمرد والعصيان، لذلك جنب نفسه شر استخدام أهل الحسب. وكان رؤساء دولته من المحدثين في النعمة الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم عن المجد سابقة فتوثقت صلتهم بسيدهم توثق الضعيف بالقوي إذ لولاه لداستهم الأسر العزيقة بالأقدام. لهذا وسم حكم عبد الرحمن بالمركزية الشديدة التي هي أقرب إلى الاستبداد. قال عنه صاحب الأخبار المجموعة: «أنه أغاظ الأحرار وأوقعهم بين أيدي الأنذال». وفلسفة عبد الرحمن في الحكم وجنوحه إلى الاستبداد تظهر من مناقشة طريفة جرت بينه وبين أحد السفراء الأوروبيين. فقد تحدث السفير إلى عبد الرحمن بأن ملكهم يناقش الناس ويأخذ رأيهم وأن كل صاحب أقطاع يتصرف في إقطاعه ويتلقى ولاء من فيه من الناس، وله الحق في مناقشة الملك إذا لم يرض عن تصرف من تصرفاته. فأنكر عبد الرحمن ذلك إنكاراً شديداً وقال: إن هذه السياسة مفسدة للملك وعجب كيف يكون هناك من يسمح بجانب من سلطانه لنفر من الرعية. وفي الحقيقة كان عبد الرحمن معذوراً إلى حد بعيد فإن بلاد إسبانيا الإسلامية كانت بلد ثورات واضطرابات وكان الأندلس بطبعه بلداً عنيفًا فرديًا نزاعًا إلى الاستقلال لا تسيطر عليه إلا يد قوية حازمة. وكانت لعبد الرحمن في الجيش سياسة وليدة التجربة المحزنة التي مرت بها البلاد منذ أيام عبد الرحمن الأول، فقد عمل الناصر على القضاء على العصبيات في الجيش قضاءً تامًا؛ لأنها في نظره سر بلوى الأندلس ومصيبته، لذلك ألغى الوجود القبلي للقوات وجعله وجودًا فرديًا لا أثر فيه لقبيلة أو عشيرة، واستكثر من الصقالبة بصورة كبيرة وجلب المجندين من الفرنجة وفاليسيا ولومبارديا وكان تجار الإغريق والبندقية يجلبون هؤلاء الأرقاء ويبيعونهم للخليفة ليهذبهم ويربيهم

على الإسلام، وهم أقرب شبهًا بالمماليك الذين استخدمهم الأيوبيون في الجيش. وكانوا عدة هؤلاء الناس في إحراز النصر في الداخل والخارج. ثم أصبح الصقالبة في إسبانيا الإسلامية والمماليك في مصر قوادًا وأمراء وارتبطوا بالإقطاعات العسكرية وورثوا الملك والسلطان في أوج الخلافة وحازوا الثروات وورثوا الخلافة بعد سقوطها ونشأت منهم إمارات شاركت في أحداث عصر الطوائف. والمؤرخ بروفنسال يقسمهم إلى فئات وطوائف أعلاهم مرتبة طائفة الفتيان وأوسطهم رتبة الغلمان وأدناهم الخصيان. ولقد لعب هذا الجيش دورًا كبيرًا في تحقيق أهداف عبد الرحمن الداخلية والخارجية. وقد انعكست توفيقات عبد الرحمن وانتصاراته على الحياة الاجتماعية لقرطبة في عهده فأصبحت حاضرة الإسلام في المغرب بل أصبحت حاضرة عالمية كبرى، وبلغت قصور عبد الرحمن من الأبهة حدًا بعيدًا، وكانت لها أسماء غاية في الرقة (الزاهر - المعشوق - المؤنس - التاج - دمشق). وصحب إعلان الخلافة تطورًا آخر له نظائر في تاريخ الشرق؛ وذلك حينما بنى عبد الرحمن حاضرة جديدة للخلافة وهي مدينة الزهراء على بعد خمسة كيلو مترات شمال شرق قرطبة في سفح الجبل المسمى بجبل العروس وكان ينفق عليها كل سنة ثلث دخل مملكته. وكان عدد العمال المسخرين فيها كل يوم نحوًا من عشرة آلاف عامل. كانت الزهراء في الحقيقة حاضرة الخلافة الجديدة. وكان قصر الخليفة بها آية في الروعة والبهاء. كان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الرخام والذهب. وفي وسط البهو حوض من الزئبق وإلى كل جانب منه ثمانية أبواب من الساج والأبنوس مرصعة بالجوهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق لمعت كالبرق، وقد بالغ المؤرخ ابن حيان في وصف هذه الحاضرة وما بها من منشآت وقصور.

استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكه نافار وملكها وملوك وسفراء الروم. والمؤرخون يصفون نظام البروتوكول العجيب في القصر عندما تحدثوا عن مثول سافشو بين يدي عبد الرحمن، ويستفاد من هذا الوصف أن الخلافة بلغت غاية التطور في البروتوكول والمراسيم، تحول عبد الرحمن من بساطة الأمراء إلى سمو الخلفاء وبدأ يحتجب عن الناس ويقابلهم وفق مراسيم معينة، وتطور القصر الخلافي تطوراً عظيمًا حتى فاق قصور الخلافة ببغداد[1].

أنفق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك أربع سنوات في القضاء على حركات الثوار في غربي الأندلس وجنوبها ولم يغفل لحظة عن مطاردة العصاة، فحاصر «طليطلة» التي كانت معقلاً للثوار مدة عامين حين قام بالخروج فيها أحد زعماء المولدين حتى يئست واستسلمت وخرج بنفسه في أواخر (317هـ/ 929 م) متوجهًا ناحية الغرب وأنذر العصاة وحاصر «بطليوس» وغيرها ومنع عنها كل مورد وضربها بشدة حتى اضطرت إلى التسليم، وفعل الشيء نفسه في «باجة» وفي «أكشونة» قرب ساحل المحيط التي أتى الثائر بها معتذراً فقبل «الناصر» عذره. وكما طارد الناصر العصاة في الغرب طاردهم أيضًا في شرق البلاد، فبعث وزيره «ابن بسيل» لمقاتلة بني ذي النون، فقصد معقله «شنت بريه» واقتحمه وقتل رجاله ولم يتركه إلا بعد أن خضع له، وفي (317 هـ/ 929 م) افتتحت مدينة «شاطبة» بعد أن ترددت عليها الحملات العسكرية لمدة خمس أعوام، وبذلك أخمدت كل الثورات في أنحاء «الأندلس» كافة بعد أن بقيت نحو نصف قرن تستنفذ موارد البلاد وتمنعها من الجهاد ضد عدوها المتربص بها في إسبانيا النصرانية. تعرضت الحدود الشمالية لقرطبة لأخطار جسيمة قبل أن يتولى «عبد الرحمن الناصر»، وفي الأيام الأولى للناصر تمكن

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 145.

«ألفونسو الثـالث» ملك «اشتورياس» من الاستيلاء على حـصون «قلمرية» - في البرتغال حـاليًا - كما سيطر على حـصون ليون واشترقة وأمـاية وسمورة منتهزًا انشغال الأمير في المشاكل والثورات الداخلية، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصـارى الأندلس المستـعربين الذين هاجـروا إلى الشمـال واستـقروا في الممالك النصرانيـة، وعقب موت «ألفونسو» الـكبير هذا استولى خليـفته على حصن «أرماج» - الذي سيكون له شأن في الصراع بين الإسلام والـنصرانية زمن الناصـر - ومـعنى ذلك أن مملكة «اشـتـورياس» توسـعت وتضـاعـفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة ليون في الأيام الأولى لحكم الناصر، بل تجرأ بعض قواد الـنصارى ووصلوا إلى ضفـاف نهر «الدويرو». وقـد انتهـز أمراء بنبلونة - عاصـمة نبـرة - وغيرها من الإمـارات النصرانية الصـغيرة الواقـعة جنوبي جـبال «ألبـرت» الفـرصة، وتمكـنوا بمعاونة أصـحـاب الثغـر الأعلى الأندلسي من تهديد المعاقل الإسلامية في «تطيلة» وغيرها، ونجح ملك قشتالة الجديد في مد حدود دولته لتشمل أراضي قشتالة الجديدة، التي كانت أراضي إسلامـية بهـا عدد قليـل من المسلمين في ذلك الوقت، كذلك أمكـن لإمارة «قطلونيـة» التي تمكن ملوك الإفرنجـية من إنشـائها فـي عهد «عـبد الرحـمن الداخل»، أن تتـوسع أيضًا على حـساب أراضي المسلمين. وهكذا كـان على عبـد الرحمن الناصـر عند توليه أن يواجه مـوقفًا بالـغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسي.

تولى «راميرو الثاني» الحكم في «ليون» في السنة نفـسها التي تولى فيها «الناصر»، وكـان «راميرو الثاني» ملكـًا طموحًا دائب الحركـة، ولهذا بدأ في العام الثاني لحكمه يهاجم أراضي المسلمين، ووصل إلى «يابرة» - في البرتغال الحالـية - على رأس جـيش بلغ تعداده ثلاثين ألفًـا وتصدى له عـامل البلدة المسلم، ولكنه هزم وتمكن الـنصارى من دخـول البلد وارتكبوا مـذبحة ضـد

أهلها وأسروا أربعة آلاف، فيهم عدد من النساء والأطفال، وقد خشي عمال البلاد من مهاجمة هذا الملك لبلادهم، فحصنوها وأحاطوا بالأسوار الحجرية المتينة، ومع ذلك استطاع ملك ليون مهاجمة مدينة «ماردة» ونهب أراضيها ودخل بعض حصونها وقتل فيها ألوف المسلمين، وأنشأ هناك كنيسة تسمى كنيسة القديسة «ماريا الليونية». وكان «عبد الرحمن» يؤثر في أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من تطهير إسبانيا الإسلامية من الثائرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل الناصر يتخلى عن خطته، فبعث بجيش قوي (304 هـ/ 916 م) التقى بجموع النصارى وهزمهم في عدة مواقع وعاد محملاً بالغنائم وفي العام التالي ضج المسلمون وطلبوا من الأمير إنقاذهم، فأرسل إليهم قوات يتزعمها «أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة» قائده الكبير، وقد استعد له ملك النصارى وجهز أحسن ما لديه من عدة وسلاح. والتقى الفريقان بالقرب من بلدة «أرماج» وانهزم المسلمون وقتل قائدهم وتتبع النصارى فلولهم لمسافات بعيدة، وكانت تلك نهاية «أبي العباس أحمد ابن محمد بن أبي عبدة» القائد المغوار صاحب الفضل في المحافظة على بقاء الإمارة الأموية طوال فترة حكم الأمير «عبد الله»، وقد قام ملك النصارى بتعليق رأس هذا القائد العظيم على سور البلدة المذكورة وبجواره خنزير بري نكاية به. هنا أدرك «عبد الرحمن» أن الأمر جد خطير وبخاصة بعد تحالف ملك ليون مع ملك نبرة، وسارت قواتهما معًا تريد الاستيلاء على مدينة «طلبيرة» غربي «طليطلة» وفي الوقت نفسه توجهت قوات تابعة لملك «نبرة» لمهاجمة أراضي «بني قسى» أصحاب «طليطلة»، وأحرقت الزروع وعاثت فسادًا، وأحرقت بعض المساجد، ولهذا أعد عبد الرحمن جيشًا ولى قيادته حاجبه «بدر بن أحمد» الذي احتشد له النصارى من كل ناحية، وتقدم المسلمون كالسيل إلى حدود ليون وهزموا النصارى هزيمة

ساحقة في موقعتين، ومع ذلك استمر النصارى يغيرون على الأراضي الإسلامية، وجرت حروب كانت سجالاً.

صمم عبد الرحمن على أن يخرج بنفسه لمقاتلة النصارى، فخرج من قرطبة في (13 من المحرم سنة 308 هـ/ أوائل يونية عام 920 م) في جيش ضخم، وانضم إليه كثير من أهل الثغور، وقد اخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً، واتجه إلى طريق ألبه والقلاع «قشتالة»، ووصل إلى «قلونية» ونسف وخرب دون أن يعترضه النصارى لأن ملكي ليون ونبرة كانا ينتظران بجموعهما في الشمال. وقد عرج «عبد الرحمن» على «طليطلة» واستولى على حصون مهمة بها، ثم عبر نهر «إيرة» حيث وجد الملكين في كامل قواتهما، وقد أرادا استدراج الناصر إلى شعب الجبال، لكنه نجح في سحبهما إلى السهل المنبسط وعسكر غربي «بنبلونة» عند بلدة تسمى «خونكيرا»، وعندما انحدر النصارى من الجبل إلى السهل، أوسعهم المسلمون قتلاً وأسرًا وفتكوا بالعديد من أساقفهم وزعمائهم ومزقوهم، ثم هدم عبد الرحمن حصونهم، وأصلح حصون المسلمين بهذه النواحي، وجرت هذه الموقعة في (6 من ربيع الأول 308 هـ/ 26 من يولية عام 920 م)، وقد استغرقت غزوة الناصر هذه ثلاثة أشهر، وكانت أول غزوة له ضد ملوك النصارى. لم ترتدع قوى النصرانية رغم مما تعرضوا له من هزائم وأخذوا يهاجمون الأراضي الإسلامية، واستولوا على بعضها، لذلك خرج «عبد الرحمن» إليهم مرة أخرى في (المحرم 312 هـ/ 17 من إبريل 924 م) وسلك اتجاه الشرق مخترقًا كورة تدمير فبلنسية، ثم دخل إلى طرطوشة فسرقسطة ثم تطيلة، ثم دخل أراضي «نبرة» حيث استولى على كثير من الحصون وهدمها، ثم قصد بعد ذلك بنبلونة - عاصمة مملكة نبرة - ودمرها وهزم ملكها، وأنهى مقاومته تمامًا وفي طريق عودته إلى «قرطبة» عرج على «موسى بن ذي النون» وقبل طاعته وقد استغرقت هذه الغزوة أربعة أشهر وعرفت بغزوة «بنبلونة».

مات ملك ليون وحدثت مشاكل داخلية انتهت بتولية ملك جديد عمل على توسيع الفتنة بين المسلمين وكانت «طليطلة» آنئذ تقوم بثورة معارضة، فقام الملك النصراني بتشجيع الثوار، وبدأ «عبد الرحمن» من ناحية يرسل العلماء لحث الثوار على الطاعة، فلم يستجب أحد مطمئنين إلى محالفة ملك النصارى لهم، لذلك اضطر الناصر إلى أن يخرج إلى الثائرين في قوات ضخمة في (ربيع الثاني 318 هـ/ مايو 930 م)، وبعد حصار شديد غادر عبد الرحمن المدينة وترك على حصارها بعض قواته، ثم عاد إليها بعد عامين فسار ملك ليون لإنقاذ «طليطلة» واستولى في طريقه على حصن مجريط (مدريد) لكن المسلمين استردوه، ففر ملك ليون واضطر أهل «طليطلة» إلى التسليم وانتهت بذلك ثورة من أخطر الثورات التي واجهها الناصر. وواصل «عبد الرحمن» ضرباته في بلاد الشمال، ولم يجد ملوك النصارى مفراً من طلب الصلح، وأصبحوا من أتباع الناصر، وظلوا يخطبون وده ويطلبون العلاج في عاصمته. ولكن ملك ليون آله أن يخضع ملوك النصارى لأمير قرطبة، فحرضهم على حربه وجمع جيشًا كبيرًا يواجه به المسلمين فاستعد له عبد الرحمن استعدادًا كبيرًا؛ خاصة وقد تمكن الملك النصراني من الاستيلاء على حصن مجريط وهدد طليطلة (سنة 320هـ/ 932م) وقصد الجيش النصارى عن طريق وادي الحجاز، ثم سار إلى سرقسطة وبعث بقوات إلى «تطيلة» و«طرطوشة» وتحول إلى أراضي «نبرة» ليتلقى من ملكها رسالة تعبر عن رغبتها في السلم والمصالحة فوافق الأمير وأقر ابنها ملكًا على بلاد «البشكنس» ثم سار إلى أراضي «آلبة والقلاع» وخرب ونسف وعاث في أراضي ليون، فاجتمع له النصارى ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون ووصل إلى مقربة من ليون، ثم ارتدت قواتهم شرقًا وأخذت تعيث في أراضي قشتالة وخربت عاصمتها «برغش» ثم عادت القوات الإسلامية إلى قرطبة بعد أربعة أشهر.

وفي (323 هـ/ 935 م) خرج أسطول الناصر في أربعين سفينة من ثغر ألمرية إلى جزيرة ميورقة، ومنها إلى شواطئ الثغور الفرنجية حيث حقق انتصارات كبيرة، وتوجه بعدها إلى برشلونة. فاجتمع الفرنجة لمقاتلته، ودارت بينه وبينهم مجتمعين معركة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، ثم رجع إلى طرطوشة حيث صدرت الأوامر للقائد بالتوجه إلى سبتة وطنجة للتعامل مع الثائرين هناك، فظل يتردد بين مراسي العدوة المغربية حتى شتاء العام التالي، ثم رجع إلى مرسية في (صفر 324 هـ/ ديسمبر 935 م). كان «عبد الرحمن» قد عقد صلحًا مع ملك ليون بناءً على رغبته، لكن النصارى من البشكنس تحركوا واحتلوا بعض الحصون، وفي الوقت نفسه ظهرت بوادر فتنة خطيرة في سرقسطة، لأن أصحابها التجيبيين لم يكونوا على وفاق مع حكومة قرطبة، وما كانت تعجبهم سياسة «عبد الرحمن» التي تعمل على إخضاع الزعماء المحليين بالإضافة إلى أن وجودهم بين الممالك النصرانية أعطاهم فرصة التآمر والخروج على سلطان الحكومة المركزية، وقد رفض زعيمهم بالفعل أن يشترك مع الناصر في حملته الأخيرة ضد النصارى، بل وتحالف مع ملك ليون ضد المسلمين، وانضم إليهما البشكنس، وبذلك وقف الشمال كله متحالفًا ضد عبد الرحمن. بعث الناصر بعض القوات التي تعاملت مع هؤلاء في بعض المواقع، وتمكنت حامية مجريط - أهم قلاع الثغر الأدنى - من رد هجوم ملك «ليون» عليها، ثم خرج عبد الرحمن بنفسه على رأس جيش ضخم في (رجب 325هـ/ مايو 937 م) فسار أولاً إلى «طليطلة» لتأمين أهلها وإرهاب النصارى، وسلمت له «وشقة» و «طلبيرة» غربي «طليطلة». بعد ذلك توجه الناصر إلى الثغر الأعلى عن طريق وادي الحجارة، وقصد قلعة أيوب التي يعتصم بها زعيم التجيبيين، وعرض عبد الرحمن عليه الطاعة فرفض، واضطر إلى أن يدخل معه معركة عنيفة انهزم فيها الثائر وطلب

الأمان فوافق الناصر على تأمينه، وكان سقوط قلعة أيوب هذه أول صدع خطير في ثورة بني تجيب. ثم اتجه الناصر إلى ألبه والقلاع ففتح من حصونها سبعة وثلاثين حصنًا، ثم ذهب إلى بنبلونة - عاصمة نبرة - لتأديب الناكثين. وأخيرًا قبل اعتذار ملكتها وتوجه إلى تطيلة ومنها إلى سرقسطة وقام ببعض العمليات الناجحة برًا وبحرًا ضد ملك ليون وحلفائه، واستمر يحاصر سرقطسة حتى طلب زعيم بني تجيب الصلح فوافق الناصر[1]. وبذلك سقطت سرقسطة وحصونها المهمة في يد الناصر، وانهارت أخطر ثورة واجهها الناصر، وهي ثورة التجيبيين الذين كانت بلادهم مركزًا يجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة سواء أكانوا من الثوار أم من زعماء النصارى. ويلاحظ أن الناصر كان حريصًا على أن يعفو عن الثوار وأن يحسن إليهم ويضمهم إلى جيشه، وبهذه السياسة الرشيدة استطاع أن يستفيد من كل القوى المناوئة له عندما أحسن إليهم، وقد دخل الأمير الأندلسي سرقسطة وأرسل منها ثلاثة جيوش توغلت في أراضي ألبة والقلاع وهزمت النصارى في عدة مواقع ثم عادت جميعًا إلى قرطبة في (18 من ربيع الأول 326 هـ/ أواخر يناير 938 م) بعد ثمانية أشهر قضوها في العمليات الناجحة، وأراد الناصر أن يكرم زعيم «بني تجيب» فرده إلى «سرقسطة» وأعاده إلى مكانه وولاه كل مناصبه السابقة.

مزق «عبد الرحمن الناصر» التحالف النصراني الخطر وأخضع الشمال الشرقي كله لسيطرته ولم يبق إلا ملك ليون بؤرة الفساد الحقيقي في هذه المناطق، وقد تم تجهيز جيش ضخم بلغت قواته نحو مائة ألف جندي، وولى الناصر قيادته «نجدة بن حسين الصقلبي»، وكان الصقالبة قد سيطروا في هذه الآونة على كل مناصب القصر والقيادة، وقد أثر ذلك على نفوس العرب وكان سببًا في تدهور قوى الجيش المعنوية. وفي صيف عام (327 هـ/ 939 م) سار الناصر

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 51.

وعبـر نهر التاجه عند طليطلـة ثم عبر نهر «دويرة» متجهًا نحـو قلعة «شنت منكش» حيث كان ملك لـيون قد عسكر مستـعدًا وحالفه «أميـة بن إسحاق» وملكة نبـرة التي نقضت عهـدها، وبذلك اتحدت قـوى النصرانيـة من جديد ووقفت صفًا واحدًا في مواجهة المسلمين. وجرت بين الطرفين موقعة تعد من كوارث التاريخ الأندلسي، عـرفت بموقعة الخندق، وتفيض المصادر الإسـبانية في وصف ما حدث، بينما تقدمها الرواية الإسلامـية في صورة مقتضبة، وقد جرت وقـائعـها على باب قلعـة «شنت منكش» (سيـمانقـة) وكانـت الحرب سجالاً، ثم انكشف المسلمون انكشافًا لم يسمع بمثله وردهم العدو إلى خندق عمـيق نسبت الموقعة لـه، وقد تساقط فيـه المسلون حتى امتـلأ بهم عن آخره وانكشف الناصر واستولى العـدو على محلاته وما فيها من عـدة ومتاع وفقد مصـحفه الشـريف ودرعه. وكـان للخونة وعلى رأسهم «فـرتون بن محـمد الطويل» أثره في الهزيمة، وقـد أعدمه الناصـر جزاءً وفاقًا لخـيانته، كمـا كان لتولية قائد صقلبي أثره في امتـعاض العرب وتأثيره على روحهم المعنوية أثناء القتال، وقد قتل ذلك القائد في المعركة، وأسر من كبار المسلمين «محمد بن هاشم التجيبي» وبقي في أسر ملك ليون مـدة عامين حتى افتداه الناصر بمبلغ كبير. وهذه خاتمة مـعارك الناصر الحربية فلم يغز بعدها بنفسـه واقتصر تقليد شئون الثغر الأعلى على أكابر رجاله ممن ورثوا الصلابة والبأس عن الأجداد، من أمثال آل تجـيب وآل ذي النون وآل زروال وآل الطويل وآل رزين وغيرهم، وكان الناصر يزورهم كل عـام ويزودهم بالعدد والسلاح، وقد استـأمن «أمية ابن إسحاق» الذي تحالف مع النصارى فوافق الناصر على تأمينه عملاً بسياسته في اصطناع الخصوم الأقوياء.

أرسل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصـر فاستجـاب له الأخير، لكنه كان صلحًا قـصير الأمد كالعـادة، كما عقد الناصـر صلحًا مع ملك برشلونة

وغـيره، لكن ملـك ليون لم يحتـرم الصلح وهاجم الأراضي الإسـلاميـة، فـاضطر المسلمون إلـى غزو مملكة ليـون (329 هـ/ 941 م)، وتوجيـه بعض الحملات إليها وإلى جليقة. وفي (335 هـ/ 946 م) جدد الناصر مدينة سالم، أقصى مدن إسبانيـا الإسلامية الشمالية الغربيـة إلى حدود ليون، ونقل قاعدة الثغر الأعلى من طليطلة إليه، وولى عليهـا قائده «غالب الناصري» الذي كان له شأن في تاريخ إسـبـانيا الإسـلاميـة زمـن الناصر وابنه الحكم المستنصر بعده وقـامت قوات عبد الرحـمن بمعارك وغزوات ناجحـة حتى وصلت إلى شـاطئ المحيط الأطـلسي، الشيء الذي جـعل ملك ليـون يطلب الصلح مع الناصر إيمانًا بأنه لا قبل له به. عندما تولى عبد الرحمن الناصر، كانت الدولة الفاطمـية قد قامـت في بلاد المغرب منذ أربع في (296 هـ/ 909 م)، وامتد نفوذها بسرعـة حتى وصل إلى سبتة، وأصـبحت تهدد الشواطئ في إسـبانيا الإسلامية وتمثل خطرًا دينيًا وسياسيًا عليها، ومن الطبيعي أن يزعج هذا الأمر الأمـويين في الأندلس؛ لأن المغـرب قاعـدة من يريد الوصـول إلى إسـبانيـا الإسلامية. كما أنه يمد الثوار بها بحاجاتهم ويشجعهم على التآمر ضد الإدارة الأموية. كـان على الناصر أن يواجه هذه المشـكلة قبل أن يستـفحل خطرها. ولهذا بعث عام (319 هـ/ 931 م) أسطولاً مكونًا من (120) سفـينة وسبـعة آلاف رجل إلى سبـتة انضم إليهم بعض المتطوعـة في الطريق، وقد تمكن هذا الأسطول من السيطرة على سـبتة وانتزاعـها من البربر حلفاء الفـاطميين، ثم حاصـر الأسطول بعد ذلك طنجة وضـيق عليها حـتى استسلمت وخـضعت للناصر وغادرها بقية الأدارسة، وبادر زعـماء البربر إلى إعلان الطاعة للناصر وامتدت دعوته حـتى فاس، وأطاعه «موسى بن أبي العافيـة» زعيم مكناسة، وأمده النـاصر بالجنود والسـفن حتى هزم الفـاطميين ووقف سـدًا منيعًـا أمام محـاولاتهم في المغرب واسـتمرت جـيوش عبـد الرحمن تعـبر من الأندلس

لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من البربر والأدارسة حتى استقر له الأمر ودعي له على منابر المغرب (322 هـ/ 944 م). وقد قويت الأساطيل الفاطمية في عهد الخليفة «المعز لدين الله»، وبدأت تجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ووصلت إلى ألمرية وأحرقت سفنها وعاثت فيها (344 هـ/ 955 م)، فرد الخليفة الناصر بإرسال قوة بحرية عاثت في تونس، وأمر بلعن الفاطميين والشيعة على منابر إسبانيا الإسلامية، وفي سنة (347 هـ/ 958 م) أرسل الناصر أسطوله ثانية إلى المغرب العربي ردا على الحملة الفاطمية التي قادها «جوهر الصقلي» إلى عدوة المغرب، التي تمكنت من الوصول إلى فاس، وأرسل في الوقت نفسه حملة أندلسية عن طريق سبتة إلى المغرب بقيت هناك حتى رجع الفاطميون. وكانت سياسة الناصر مع الفاطميين تتجنب الدخول في صراع صريح معهم؛ لأن هذا يضعف جبهته الشمالية أمام النصارى، ولهذا وجدناه يكتفي بإرسال السلاح والعتاد والمعونات المالية الكبيرة إلى «موسى بن أبي العافية» و«مصالة بن حبوس» وأمثالهما لإلحاق الهزيمة بأعوان الفاطميين، ثم اكتفى باحتلال سبتة وطنجة ومنهما زود أعوانه في المغرب بحاجتهم ليثبتوا أمام الشيعة، وربما لجأ إلى معاونة الخارجين على الفاطميين من غير الأدارسة وهو على كل حال لم يلق بخيرة جنده وقواده في الصراع المغربي، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه ابنه الحكم المستنصر بعد ذلك فأثر على جبهته الشمالية وأضعفها ولم يتمكن من الخروج بنتيجة حاسمة[1].

إعلان الخلافة الأموية في قرطبة

عندما تولى «عبد الرحمن الداخل» أمر بعدم الدعاء لبني العباس ولم يتخذ لقب الخلافة مكتفيًا بالإمارة، وسار بنوه على نهجه، فلما تولى

(1) د. عبد الله جمال الدين - نفس المرجع ص 54.

الناصر، وجد أن هنـاك دولة فاطمية قامت في بلاد المـغرب العربي، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة وسـماتهـا وإذا كـان هو قـد نهض بالدولة ووطد سلطان بني أمـيـة في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حـقه لقب خليفة؟ لذلك أصـدر أمرًا بذلك في يوم الجمعة مسـتهل (ذي الحجة 316 هـ/ أوائل 929 م) وأصبح عبد الرحمن الثالث يلقب بالخليـفة أمير المؤمنين الناصـر لدين الله، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفـريقية والمغرب. وبذلك أصـبحت الخلافة الأمويـة مساوية للخلافة العبـاسية، ويناط بها رعاية شئون المسـلمين، وتولية أمر الإسلام في الجناح الغربي من العالم الإسـلامي. وقد استتبع ذلك تغييـرًا كبيرًا في شكل الإمارة القرطبية ونظامها؛ حـيث وضعت لها هياكل إدارية تعكس هيبة الدولة وتمنح البلاط القـرطبي وجاهة أكثر. وكـثر القواد في جيش الخـلافة وتنوعت مراتبهم وكـثر الوزراء أيضًا وتضاعفت هيـبتهم. وكانت سياسـة الناصر تقوم على النقل المستمر لوزرائه وولاته وقـواده حتى لا يطول أمد الواحد منهم في وظيفته، وقد يدفعه ذلك إلى الاستبداد بالسلطة. لقد كان عبد الرحمن يؤمن بالسلطان المطلق للخليفـة، ولا يسمح لكبار رجال الدولة بـإملاء رأي عليه، كما لا يمنح ولاة الأقاليم شيئًا من الاستقلال، ويرى أن الرعية ينبغي أن تكون رعية مطيعـة بأمر الخليفة خاصة بعـد الانتصارات التي حققهـا على المستويين الداخلي والخارجي، وكـان يلقى وزراءه في مجلس فـخم يعد كل شيء فـيه بنظام مرتـب. ورغم ميل الناصر إلى الاسـتبـداد فإنه لـم يعـرف عنه أنه كان ظالمًا، ولم تذكـر المصادر أنه قـتل وزيرًا أو صادر مـالاً أو اعتـدى على حق لأحـد أو بالغ في عقـوبة، وربما كان الوحـيد بين خـلفاء المسلمين بإسـبانيـا الإسلامـية فـيمـا يتعلق بتـصرفـاته في الخلافـة وسلوكه بما يتـفق مع مكارم الأخلاق ومبادئ الإسـلام، وبهذه الأخلاق والوفاء استطاع الناصـر بعد عشر

سنوات من حكمه أن يعيد النظام والهدوء والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة، كما منح أمانات لبيوتات الثغر الأعلى من أمثال: بني هاشم وبني قسي وبني الطويل واستفاد بهم وبما تميزوا به من شجاعة في حروبه، ونجح في تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء. كثر سكان قرطبة في عهد الناصر ووصلت مبانيها إلى تل الرصافة الذي يقوم عليه قصر الرصافة، ولم تعد قصور العاصمة تليق بالمكانة العظيمة التي ارتفعت إليها الخلافة، كذلك ضاقت أسواق البلد وطرقاتها، وأصبح من العسير على جيوش الدولة ومواكب السفراء المستمرة أن تسير في شوارع المدينة دون أن تضايق الناس. وكان الناصر قد بنى إلى جانب «القصر الزاهر» قصرًا جديدًا سماه «دار الروضة» استدعى له المهندسين والبنائين من كل ناحية، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة جلب لها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة، ومع ذلك فقد كانت العاصمة تضيق بسكانها ولا تفي بحاجة ملك عظيم بلغه الناصر، ووطده عن طريق سحق أعدائه في الداخل والخارج؛ لهذا كله فكر في إقامة مدينة جديدة تضم قصوره وأماكن حاشيته، وأخذ المهندسون في دراستهم ووصلوا إلى إقامتها على سفح جبل العروس على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة وتطل عليها من الناحية الجنوبية الغربية. سميت تلك المدينة بالزهراء، نسبة إلى إحدى نساء عبد الرحمن التي ماتت عن مال كثير وأوصت أن ينفق في فك أسرى المسلمين، لكن الناصر لم يجد أسرى فقرر إنشاء المدينة بهذا المال وأطلق عليها اسم صاحبة ذلك المال. بدأ العمل في المدينة الجديدة (أول المحرم 325 هـ/ نوفمبر 936 م)، وتولى الإشراف على بنائها «الحكم» ولي العهد، وحشد لها أشهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ولا سيما القسطنطينية وبغداد، وجلب لها الرخام بألوانه من «المرية» و «رية»، ومن قرطاجنة المغرب العربي وتونس والشام، وجلب لها

4324 سارية من الرخام واشتغل في بنائها يوميًا عشرة آلاف رجل، و 1500 دابة، واستخدمت من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة في اليوم، وقدرت النفقة على بنائها بـ 300 ألف دينار سنويًا بخلاف ما أنفق في عهد الحكم، وأقام الناصر لنفسه قصرًا أسماه قصر الخلافة، جدرانه من رخام مزخرف بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب وأقام الخليفة في الجناح الشرقي المسمى بالمؤنس، وزوده بأنفس التحف ووضع في الحوض المنقوش بماء الذهب المهدى إليه من قصر القسطنطينية. وجدير بالذكر أنه تم التخطيط لمدينة «الزهراء» بحيث تكون مستقلة بذاتها، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من يدخل المدينة من درجة إلى درجة، وفي كل درجة يجد قسمًا من أقسام المدينة، ويدخل الإنسان إليها من أسفل الجبل عن طريق باب كبير يسمى باب الأقباء - جمع قبة - لأن هذا المدخل كانت تحيط به وتقوم فوقه قباب، بعد ذلك يسير الإنسان مسافة طويلة في طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة (باب القصر) ويصعد درجات، وإلى جانب هذا المصعد ذي الدرجات يوجد مصعد آخر بل درج مخصص للخيل، وعندما يصل الإنسان إلى المستوى الثاني يجد مساكن الجنود وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة، كما وجدت هناك آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء، وكل هذه البيوتات محاطة بالأشجار والخضرة، وعندما ينتهي الإنسان من هذا المستوى يصعد مرة أخرى حتى يصل إلى سهل منبسط بنيت عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه بما في ذلك أماكن إقامة الحرس الخاص بالخليفة، وما يلزم لهؤلاء من حمامات ومساجد، بعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة فيواجه لأول صعوده البهو الكبير الذي أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب، وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس تفضي إلى قاعة فسيحة بها ثلاثة أبهاء ينتهي الأوسط بمجلس الناصر في

صدره، وهناك يجلس الخليفة فوق عرشه تحيط به مقاعد الأسرة المالكة كل حسب مرتبته، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف موضوعة بصورة محكمة بحيث يختص كل مسئول بمقعده الذي لا يتغير، فإذا ما نظر الناصر ووجد مقعدًا خاليًا عرف من تغيب، أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفي القصر وكتاب الخليفة، وهذا المجلس يبدو للرائي من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء، وقد أراده «عبد الرحمن» على هذه القصور؛ ليتمكن من رؤية السفراء والملوك وهم مقبلون من بعد، ثم وهم صاعدون إلى القصر، وقد سميت الرحبة التي أقيم فيها البهو الرئيسي باسم «السطح الممرد»، وجعل أمام بهو الاستقبال حوض للسباحة، مصنوع من الرخام حفر له في الأرض، وزين بالتماثيل وقد تم جلبه من القسطنطينية وقد ضاعت معالم هذا القصر أثناء محنة الفتنة والصراع على الخلافة ويحاول علماء الآثار منذ (1328 هـ/ 1910 م) العثور على شيء من معالم هذا القصر، وإعادة إقامة بعض منشآته وخاصة بهو الاستقبال. وبناء هذه المدينة والقصر يعكسان رخاء الأندلس ونهضة الفن المعماري بها آنئذ، ووصل ازدهار قرطبة إلى أعلى درجاته فوصل عدد دورها إلى 113 ألف دار بلغ مجموع قاطنيها مليونًا ومائة وثلاثين ألفًا، ومما يدل على كثرة سكان العاصمة أن عدد الحمامات بها بلغ ثلاثمائة حمام، وعدد مساجدها ثلاثة آلاف. وقد بلغت إيرادات الأندلس نحو 5.5 مليون دينار من الكور والقرى ومن الأسواق ونحوها 765 ألف دينار قسمت ثلاثًا: ثلثًا للجند، وثلثًا للبناء، وثلثًا يدخر للطوارئ. أمر الناصر بإضافة زيادة ثالثة إلى المسجد الجامع في قرطبة (346 هـ/ 957 م)، وقد ضاعفت هذه الزيادة حجم المسجد في الاتجاه الجنوبي وقد تم بناء الزيادة على طراز بقية المسجد نفسه من حيث الأقواس ومواد البناء. وعُد محراب هذه الزيادة في المسجد آية من آيات الفن بإسبانيا الإسلامية ذلك

أنه ليس محرابًا بل غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة منه في هيئة محارة، ووسط هذا المحراب كرسي يوضع عليه المصحف الشريف يستخدمه القارئ في تلاوة القرآن الكريم قبل الصلوات. وكان «عبد الرحمن الناصر» قد هدم منارة المسجد القديمة (340 هـ/ 951 م)، وجعل له منارة تميزت بفخامتها وارتفاعها الشاهق، وكانت مربعة الوجهات، وله 14 شباكًا، وسلمان للصعود والهبوط وفي قمتها ثلاث تفاحات كبيرات اثنتان من الذهب وواحدة من الفضة، وقد أزال النصارى هذه المنارة وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالي، ولا تزال اللوحة التي تشيد بجهود عبد الرحمن الناصر قائمة في مكانها عند الباب الرئيسي المسمى باب النخيل. كذلك أقام عبد الرحمن ما يعرف بالمظلة في صحن المسجد، وهي سقف متحرك يتكون من أعمدة من الخشب والحصر، يستظل بها الناس أثناء الصلاة في زمن الصيف، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزدانًا بأشجار النارنج، وتلك ظاهرة تنفرد بها صحون مساجد إسبانيا الإسلامية عن غيرها. ولا تقف جهود الناصر عند هذا الحد، وإنما يرجع إليه الفضل في إنشاء عدد كبير من المساجد في شمالي إسبانيا الإسلامية وجنوبيه كما أن إليه يرجع فضل تجديد قنطرة الوادي وقنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة. وقد اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب وإسبانيا الإسلامية، واستكثر من الأسلحة، وأمده بمجموعة من أمهر القادة، وتولى القيادة بنفسه أحيانًا. كما عني بالأسطول واهتم بإصلاح وحداته، وأنشأ به وحدات جديدة، وكانت «ألمرية» هي مركز الأسطول الرئيسي وبها دار الصناعة، وقد ضم أسطول الناصر (200) سفينة بخلاف أسطول المغرب، وكان لأسطول الناصر السيطرة على مياه إسبانيا الجنوبية الشرقية، كما كان ينازع الفاطميين السيادة على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى الرغم من الحروب فإن عصر الناصر كان عصر رخاء زاد فيه

الدخل وازدهرت الزراعة والتجارة وكثـرت أخماس الغنائم. ويقال إن الناصر لما مات وجد في بيت ماله خمسة آلاف مليون درهم، وترك في قصره عشرين مليونًا من الذهب. وفي (316 هـ/ 928 م) أمر الناصـر باتخاذ دار للسكة في قـرطبة لضـرب الدنانيـر والدراهم، وبذل جـهده في الاحـتـراس من الغش والتدليس فأصبحت دنانيره ودراهمه عيـارًا محضًا، وكان ضرب النقود معطلاً قبله. وبـلغ الأمن ذروته في سائر البـلاد أيام الناصر، وترك ذلك آثارًا طيـبة على مصادر الدخل وازدهرت العـلوم والآداب ورخصت المعايش. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الدولة الأمـوية في إسبانيـا الإسلاميـة كانت تعتـمد على اصطناع الموالي والصقالبة منذ عهد الداخل، وذلك بسبب الظروف التي قامت فيها دولته، والثورات التي أثارها من نافســه من زعماء القبائل العربية، الشيء الذي جـعله يرتاب في العـرب ويصطنع البـربر والموالي، .في عهـد «الحكم الربضي» اشتـد نفوذ الموالي والصقالبـة في القصر والدولة ومـلأ المماليك كل الأرجاء، ولما جـاء الناصر اسـتراب أيضًـا في القبـائل العربيـة فاستـأثر بكل السلطات وجمع مقاليد الحكم في يده، ولـم يتردد في سحق كل من يقف في طريقه حتّى ولوّ كان أقرب الناس إليه، وكان يثق بالصقالبة خاصة ويوليهم ما يولي سواهم من المناصب الكبـرى حتى اشتد نفوذهم، وكـانت لهم السيطرة على كل شـئون الحكم والإدارة والجـيش وكـثر المال في أيديهم، وقـد وصل عـددهم إلى نحـو أربعـة عـشر ألفًـا. وقـد بلغت السـفـارات والمراسـلات والمعاهدات بين قـرطبة وبين الدولة النصرانية أوجـها في عهد النـاصر، وكان بلاط القـسطنطينيـة من السـاعين إلى توثـيق الروابط مع حكومـة الأندلس، ووفدت رسله تحـمل هدايا للخليفـة، وأهم سفارة تلقـاها الناصر هي سـفارة إمبـراطور ألمانيا زعيم النصـرانية (344هـ/ 955 م). وكان الناصر أديـبًا عالمًا يهوى الشعر وينظمـه ويقرب إليه الأدباء ومن شعرائه عبـد ربه صاحب العقد

الفريد، وشاعر الأمويين منذ عهد محمد بن عبد الرحمن الثاني، وله أرجوزة تفيض في وصف الناصر وتستعرض غزواته جتى (322 هـ/ 934 م) مرتبة على السنين. وما من شك أن طول عمر عبد الرحمن الناصر، وطول فترة حكمه قد ساعداه على تحقيق ما وصل إليه وحققه من عظائم، واستحق أن يختم «دوزى» حديثه عنه بهذه الجملة: «الذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قرينًا لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى».

يقول عنه ليفي بروفنسال - الباحث والمؤرخ الفرنسي المشهور - «إن عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في العصور الوسطى». ويشير إليه توينبي - أشهر فلاسفة التاريخ في العصر الحديث - باعتباره مثال الحاكم المستنير الذي يتخطى عصره بملكاته وبمواهبه وأخلاقه، وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئولياته جميعًا. وقد توفى الناصر في (الثاني من رمضان 350 هـ/ 15 أكتوبر 961 م) ودفن في قرطبة، وتولى بعده ابنه «الحكم المستنصر»[1]. كان في سياسته الداخلية مسالمًا إلى أبعد الحدود. والسبب أنه كان مطمئنًا إلى الولاة الذين اختارهم أبوه وقد أخلصوا له كل الإخلاص، وأنه كان قد خرج نفر منهم في مناسبات متفرقة فلم يتسامح مع الخارجين إنما قضى عليهم في حزم وقوة، وكان في الحقيقة رجلاً رقيقًا يعتق العبيد ويبر بالفقراء وينفق على أهل العلم. كانت الأحوال الداخلية استمراراً لعهد السلام الناصري الذي أظل البلاد منذ منتصف حكم عبد الرحمن الناصر. لذلك لم يكن عهد الحكم في الناحية الداخلية حافلاً بالأحداث الجسام، ولم تسجل الحوليات فتنًا داخلية تذكر. بل يتبين مما ذكره

(1) د. عبد الله جمال الدين - نفس المرجع ص 59.

ابن حيان مؤرخ الخلافة الأموية أن الحكم لم يغير شيئًا من مألوف الحياة، ظلت نفس المراسم الخلافية تجري في قرطبة أو الزهراء كما كانت تجري أيام عبد الرحمن. وشهد العصر نفس كبار الموظفين الذين تضاعف سلطانهم يومًا بعد يوم، وبرز الصقالبة في الحياة السياسية أيام الحكم بروز عبد الرحمن، وممن ظهروا في أيامه من هذه الصائفة القائد غالب الذي كان يقيم في مدينة سالم ووكل إليه أمر حراسة الحدود وتنفيذ اتفاقيات الهدنة التي عقدت زمن الناصر. وكان غالب في الحقيقة ساعد الحكم الأمين، سواء في علاقاته مع الإمارات المسيحية في الشمال أو في تنفيذ أهداف الخلافة الأموية في المغرب. استمرت الحجابة في عهد المستنصر تؤدي نفس الدور الذي أدته أيام الناصر وإن كان قد برز أيام المستنصر أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي الذي نال الحظوة عند الحكم فقد كان أبوه مؤدب الحكم في صباه فأحب أن يكافئ الابن فولاه الكتابة ثم ولاه على جزر ميورقة، ثم تولى شرط قرطبة وأصبح وزيرًا وكبيرًا للحجاب، وقد انفرد بتصريف الأمور في السنوات التي قضاها الحكم طريح الفراش في قرطبة وكان أمينًا في تصريف الأمور يستشيره سيده في كل صغيرة أو كبيرة. وكان الحكم يظهر كفاية وقدرة عندما تتضح عداوة الأعداء المحيطين بالخلافة، فكان يخلع رداء الحلفاء ويرتدي رداء السياسة أو العسكرية فتظهر له قدرة تذكر بقدرات عبد الرحمن[1].

* * *

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 147.

الإدارة في غرناطة بني الأحمر

النظم السياسية والإدارية لهذه المملكة على عهد بني نصر تضم أهم رجالات الدولة لا يمكن فصلها عن مناصبها التي احتلتها في عهد سلاطين بني الأحمر.

الحجّاب:

يوكل منصب الحاجب إلى موظف كبير يعرف في أيامنا هذه بكبير الأمناء، في دول الخليج، ولا يزال للمنصب وجود بالمغرب، وكان مهمة الحاجب لدى بني نصر تتلخص في إدخال الناس على الخليفة؛ فالخلفاء الراشدون لم يمنعوا أحداً من الدخول إليهم، بل كانوا يخاطبون الناس من دون حجاب، ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، اتخذ معاوية ومن خلفه من بعده حجابًا يحجبون السلطان عن العامة والخاصة، خصوصًا بعد حادثة الخوارج مع علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص خوفًا على أنفسهم من شر طارئ إذ كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا، فقد قال عبد الملك بن مروان عندما ولي حاجبه: لقد وليتك حجابة بابي إلا على ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البويد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد. فوظيفة الحاجب في المشرق الإسلامي كانت تنظم عملية دخول الزوار على الخليفة حسب مراتبهم ليوفر له الجو الملائم للانصراف إلى مهامه المهمة، أما في الغرب - خاصة في إسبانيا الإسلامية - فإن دور الحاجب اتسع واتخذ أبعادًا جديدة؛ فأصبحت له صلاحيات وسلطات داخل الكيان السياسي. وخير من تحدثت لنا عنه المصادر في تولية منصب الحجابة على عهد الدولة النصرية هو أبو النعيم رضوان الذي وصفه ابن الخطيب بقوله: حسن الخلق، واسع الصدر، أصيل الرأي، رزين

العقال، كثير التجمل، عظيم الصبر، عزيز النفس، عالي الهمة، بادي الحشمة، آية في العفة مثلاً في النزاهة، ملتزمًا للسنَّة، ثاقب الذهن، عارفًا للسياسة، مكرمًا للعلماء، مقتصدًا في المطعم والملبس. كان محط ثقة العرش النصري، اختاره السلطان أبو الوليد إسماعيل كمرب لولده محمد الرابع. وما كاد هذا الأخير يستولي على السلطة حتى اتخذه حاجبًا له. ولما تولى بعده شقيقه أبو الحجاج أجمع أهل البلاط على إسناد وظيفة الحجابة إلى أبي النعيم، وأن يضم إلى جانبها رتبة الوزير، فقام بالأمر أحسن قيام واجتهد في تنفيذ الأحكام، وتولي جواب الولاة، وتطبيق أوامر السلطان وقيادة الجيوش. وعندما تولى الأمر السلطان الغني بالله، أخذ له أبو نعيم البيعة، وأعانه على أمره، وتولى له الوزارة، ونشر العدل بين ربوع المملكة؛ فارتاح الشعب لسياسته، وظل خير معين له، وأعظم مستشار، إلى أن لحق بربه في 28 رمضان 760 هـ/ 23 أغسطس 1358 م.

الوزراء:

إن كلمة «وزير» مشتقة من الوزر وهو الثقل؛ أي المعاونة؛ لأن الوزير يحمل عن الملك أعباء الدولة، أو من الوزر وهو الملجأ، بمعنى أنه يرجع إلى رأيه وتدبيره. أو من الأزر أي الظهر؛ لأن الملك يقوى بمساعدة وزيره كما يقوى البدن بالظهر. والوزارة لم تظهر مع مجيء الإسلام، بل تعود إلى عهود أقدم من ذلك، فقد عرفها الفرس وغيرهم من الأمم. ويراد بالوزارة مساعدة السلطان أو الأمير في أمور الحكم. إذًا فهي تتصل بصدر الإسلام، إذ كان الرسول - ﷺ - يشاور معاونيه - خاصة أبو بكر - في بعض الأمور، سواء الخاصة أو العامة، إلا أن هؤلاء الأعوان لم يطلق عليهم اسم وزير؛ لأن هذا الاسم لم يكن معروفًا في ذلك العصر، لبساطة الإسلام، وبعده عن

مظاهر الأبهة والعظمة، فالوزير حسب طبيعة منصبه له مهام سياسية وإدارية، فهو حلقة اتصال بين السلطان والرعية، يساعده في تسيير أمور دولته ويطلعه على كل أحوال الرعية. ولأهمية المنصب كان من الطبيعي أن تكون في الوزير، الذي يمثل السلطة التنفيذية مجموعة من الخصال، منها: أن يكون من علية القوم، وأن يتحلى بالرصانة والتواضع والمعرفة، إلى جانب الحزم والجلد، وحفظ السر، والوفاء للعاهل. كانت قاعدة الوزارة في عهد بني أمية مشتركة بين جماعة من الأفراد، والذين يختارهم السلطان بنفسه بهدف استشارتهم، فيجالسهم مرارًا، ويختار من بينهم شخصًا يكون النائب عنهم يعرف بالوزير، أما على عهد بني العباس فقد كان منصب الوزير يقصد به أيضًا وزارة القلم، ووزارة السيف، حتى إن جعفر بن يحيى دعي بالسلطان أيام الرشيد لقيامه بعموم أمور الدولة إلا الحجابة، وأما في عهد بني نصر، فقد اتسعت مهام الوزير وتخصصاته فأصبح يتولى بنفسه رئاسة السلطة التنفيذية للدولة، وكان منصبه يأتي مباشرة بعد رئاسة الدولة. أما مهامه فتتلخص في كونه يتلقى أوامر السلطان ويقوم بتنفيذها اعتمادًا على مجموعة من الموظفين الذين يوزع عليهم مختلف الأعمال، كما يشرف على الكتابة وديوان الإنشاء. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الوزير في الدولة النصرية - ونظرًا لمكانته السياسية والإدارية - كثيرًا ما كان يتولى المخاطبات الملكية وتحرير الرسائل، ومخاطبة الولاة والعمال، وتنميق المراسم والقوانين، وأحيانًا كان يقود الجيوش بنفسه، ويقوم بمهام أخرى متعددة كالحاجب أبي النعيم رضوان الذي وزر للسلطان أبي الحجاج يوسف، وكان على عهده يعين الولاة والعمال، ويرد على المخاطبات الرسمية، وينظر في مشاكل الرعايا، ويقود الجيوش، وأحيانًا أخرى كان الوزير يتولى مهام السلطان أثناء غيابه، كما حدث لابن الخطيب حينما ناب عن أبي الحجاج أثناء حروبه، إذ ألقى إليه

السلطان بسيفه وخاتمه، وائتمنه على شؤون حرمه؛ فلقب بـ «ذي الوزارتين» لجمعه بين الكتابة والوزارة. ومن مزايا هذا اللقب الإداري أن صاحبه يتولى منصبًا موازيًا لرتبة الحاجب، أما مزاياه المادية فإن صاحبه يتقاضى راتبين.

لهذا المركز المرموق والمراتب الكبيرة اتخذ بعض الوزراء سكنًا لهم بجوار قصر الحمراء قاعدة الملك ومقر السلطان، بل كانت تجمعهم مع ملوكهم علاقات متينة، إذ كانوا يبقون في القصر معظم يومهم مرافقين للملك. وقد حدثنا ابن الخطيب أنه كان يشارك الملك في مائدة طعامه، ويحضر معه أثناء الاجتماعات. ظل السلطان النصري الغالب بالله يحكم مملكة غرناطة من عام 635 هـ إلى 671 هـ، وقد وزر له أثناءها عدد من كبار رجالاته وقادته الذين ساعدوه على تسيير شؤون مملكته، كالقائد أبي مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان، وعلى بن إبراهيم الشيباني من أعيان مملكة أهل غرناطة، كما وزر له ابنه أبو عبد الله محمد، ما مكنه من كسب خبرة طويلة، وأيضًا القائد الرئيس أبو عبد الله محمد الرميمي، وبعد وفاة الغالب تولى ابنه محمد الفقيه ووزر له عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، وتعد بيوتاته من بيوتات الأشراف في شرق الأندلس، وأيضًا الحاج المحدث أبو عبد الله محمد الحكيم الرندي اللخمي الذي استمر في منصبه السياسي حتى عهد أبي عبد الله بن الفقيه الملقب بالمخلوع. ويذكر أن هذا الوزير استبد بالأمور في عهد هذا السلطان وأساء التصرف من دونه؛ فثار أهل غرناطة بمحمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم اللخمي؛ فخلع هذا السلطان وخلفه أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه في عيد الفطر سنة 708 هـ/ مارس 1309 م، أما السلطان أبو الحجاج يوسف الأول فمثل غيره من سلاطين بني نصر كان بلاطه يزخر برجالات سياسية وأدبية ودينية وعسكرية، كما ارتقت العلوم والمعارف في عهده إلى مستوى عال، وازدهرت الآداب والفنون وقفز الشعراء

والكتاب إلى المناصب الوزارية. وغالبًا ما كان الوزير يستعين بهؤلاء. كان الكتاب في إسبانيا الإسلامية على نوعين: فهناك كاتب الرسائل الذي كان يحظى بمكانة كبيرة بين أهل البلاد، وكاتب الزمام ويسمى أيضًا بصاحب الأشغال الخراجية، وكان كوزير المالية. وقد كانت مهمته الإشراف على الإدارة المالية الخاصة بجباية الضرائب وجمع الخراج وتحصيله، وكان الكتاب أحيانًا يرتقون إلى منصب الوزارة كأبي عبد الله محمد بن الحكيم الرندي اللخمي الذي كان كاتبًا للسلطان محمد الفقيه، ثم صار وزيرًا لابنه من بعده محمد الثالث الملقب بالمخلوع، ومن الكتاب من انتقل إلى وظيفة القضاء، كالقاضي أبي بكر بن أحمد بن شبرين، أصله من إشبيلية عاد في أواخر عام 705 هـ إلى غرناطة، فارتسم بها في الكتابة السلطانية، ثم تولى القضاء بكثير من الجهات واشتهر بجمال روايته وبراعة خطه، وحسن مجالسه، وكان أشد الناس اقتداراً على نظم الشعر والكتب الرائق. وخلاصة القول: كانت للوزير مهام متعددة؛ فهو المنفذ لأوامر السلطان والممثل بين يديه في الاجتماعات، ويقوم بتوزيع المهام على عدد من الموظفين، كل حسب اختصاصاته، كما كان مكلفًا بديوان الرسائل، بل يقوم بنفسه بتحرير الرسائل الرسمية والظهائر السلطانية في تعيين الولاة والقضاة وكبار الموظفين، وينوب عن السلطان في أثناء غيابه أو مرضه، وأحيانًا يقوم بقيادة الجيش. وكان الوزير أيضًا مثل السفير كالوزير لسان الدين بن الخطيب الذي بعثه السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بسفارة إلى السلطان أبي عنان المريني عام 755 هـ/ 1354 م ليقوم بتعزيته في وفاة والده أبي الحسن المريني، ويطلب استمرار العلاقات الودية بين الدولتين النصرية ومملكة فاس. ولتعدد هذه المهام حظي الوزراء بمكانة مرموقة داخل المجتمع، واعتبروا من الطبقة الأرستقراطية الغنية، والتي لا يمكن بتاتًا فصلها عن الأسرة الحاكمة[1].

---

(1) د. أحمد ثابت – المرجع السابق ص 199.

الشرطة:

كانت مهمة الشرطة تتلخص في حفظ النظام، واستقرار الأمن، ومراقبة المجرمين ومطاردتهم، وتتبع أهل الفساد، وتنفيذ العقوبات، وتوقيعها على المذنبين في المخالفات المدنية التي لا تدخل ضمن اختصاص القاضي الشرعي، فخطة الشرطة في إسبانيا الإسلامية كانت مضبوطة ومعروفة لدى الجميع يعرف صاحبها إما بـ «صاحب المدينة» أو «صاحب الليل»، وكان يكلف بإقامة حد الزنا، وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على الأدوار التي كان يقوم بها صاحب المدينة سيتضح لنا جليًا أن من الصعب عليه القيام وحده بهذه المهام مهما كانت قدراته ونشاطه، لاستمرارها ليلاً ونهارًا، وتعددها واختلافها، فله مهام اجتماعية وأمنية وقضائية، وكان يساعد صاحب المدينة في القيام بواجبه الأمني، وتنفيذ مهامه، جماعة من الحراس الذين كان منهم من يترقب الجناة، ومنهم من يطوف ليلاً للحفاظ على الأمن داخل غرناطة، ويعرفون باسم «الدرابين»؛ لكون بلاد إسبانيا الإسلامية كان بها دروب «بأغلاق»، ولكل زقاق حارس يبيت فيه، له سراج مغلق وكلب وسلاح معه لتأمين أهل غرناطة من بعض اللصوص الذين يتقنون فك الأغلاق الصعبة، وأحيانًا كانوا يقومون بقتل صاحب الدار خوفًا من كشف أمرهم، فلا يكاد تسمع في الأندلس إلا دار فلان دخلت البارحة أو: فلان ذبحه اللصوص على فراشه. وكان يشرف على مراقبة وحماية الأسوار المحيطة بغرناطة - والتي كانت مدعمة بأبواب وأبراج - حامية عسكرية تسهر على مراقبة الداخلين والخارجين عبر أبواب غرناطة؛ للدفاع عن المدينة في حالة أي هجوم. وبجانب كل هذه الاحتياطات الأمنية وجد بغرناطة نظام التجسس بين الناس ومراقبة بعضهم بعضًا، ويفهم من العديد من النصوص أنه كان هناك نوع من المراقبة السرية التي تمارس على بعض الأفراد، والتي

تبدو لنا بوضوح في رسالة السلطان أبي الحجاج يوسف الأول التي بعثها إلى أبي عنان فارس بمناسبة فرار أخيه من غرناطة إلى بلاد النصارى، فقد كاتبه قائلاً عرفنا مقامكم الأعلى بما عندنا من صرف نظرة الملاحظة إلا من لدينا من إخوانكم وبني عمكم، بحيث لا يبرح رقيبها ولا تختل ترثيتها، وإننا نصل التفقد لأحوالهم ونذكي العيون على أقوالهم وأعمالهم. وكان بغرناطة أيضًا الشرطة العليا والشرطة السفلى، وقد رأى ابن خلدون أن الأولى تنظر في جرائم الطبقات العليا من الدولة، بينما الثانية تختص بقضايا العامة. ويلاحظ في بعض الأحيان تولي بعض الأشخاص وظيفة الشرطة والحسبة في نفس الوقت، مثل أبي بكر محمد بن فتح بن علي الأشبرون الذي جمع بين المنصبين في عهد السلطان محمد الفقيه النصري، ويتحدث عنه النباهي قائلاً: كانت توليته السوق والشرطة معًا عليه من المضاء والصرامة والقوة والاكتفاء. وإذا كان صاحب المدينة عظيم القدر عند السلطان كان له قتل من يجب عليه دون استئذان السلطان، ولا يكون ذلك إلا نادرًا، ولا يتم إلا في حضرة السلطان وصاحب السوق كان يعرف أيضًا بصاحب الحسبة[1].

الحسبة:

تعتبر الحسبة من الوظائف المهمة في النظم الإدارية للدولة الإسلامية، إذ كان المحتسب ينصب من طرف الحاكم للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم. وكانت خطة الاحتساب يوكل أمرها إلى أهل العلم والفطن، وغالبًا ما كانت تسند مهمة الحسبة والقضاء إلى رجل واحد رغم ما في العملين من التباين؛ فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، بينما عمل المحتسب يتطلب السرعة في الفصل والحسبة وظيفة وجدت مع

(1) د. أحمد ثابت - نفس المرجع ص 206.

الإسلام عندمـا رأى أن الإنسان لا يستطيع أن يسـتغني عن مبدأ التـعاون مع غيره، فحتى تضبط أمور المسلمين، كان لابد من وجود سلطة تلزم كل إنسان حده حـتى لا تأمـره نفسـه بالشر ويعـبث بمصالح النـاس، أو إرضاء شـهوة جـامحـة أو نزوة طارئة؛ لذلك وجدت خطة الحـسبة التي اهتـمت بقضـايا اجتماعية وأخرى اقتصادية ويتم بها حـماية المصالح العامة للرعية، لكن مهمة الحسبـة لم تقف عند هذا الحد، بل اتسعت دائرة مـهامها، وأصبـحت تشمل جميع ما يتصل بحياة الناس الدنيوية، وحياتهم الدينية، بل أصبح قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما كـانت الحسبة تدخل في إطـار عام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقـد جعلت اختصاص المحتـسب ومجالات نظره متعددة وواسعة، ونجملها حسب أحكام الماوردي في ثلاث نقاط مركزية:

- الأمر بالمعروف فـيما يتعلق بحقوق الآدمـيين، بالإشراف على أمرهم بفعل الخيـر، وإصلاح المرافق، وحثهم على مـساعدة الفقـراء، وبناء المساجد والمدارس. - الأمر بالمعـروف فيما يتـعلق بالحقوق المشـتركة بين الله سبـحانه وتعالى وعبـاده، مثل: إلزام النساء بأحكام العدة في حـالة الوفاة أو الطلاق، والرفق بالحيوانات وعدم إرهاقها وتحميلها ما لا تطيق.

- فوظيفة المحتسب تتلخص في متـابعة المنكرات والمخالفات والتحذير من ارتكابها والتشديد على احـترام وتطبيق الأحكام الشرعية فيـها، والقضاء على الغش والاختلاس في المعامـلات والمكاييل والموازين. ويفهم من النصوص أن من عادة المحـتسب أن يذهب بنفسه راكـبًا إلى الأسواق مع جـملة من أعوانه مصحوبًا بميزانه الذي يزن به المواد المرغوب في مراقـبتها كالخبز، وهو عندهم معلوم الأوزان، ويدس صبيًـا أو جارية ليشتري مادة ما، ثم يختـبر المحتسب الوزن، فإذا وجد نقصًا فيه، لقي بائعـها ما يستحقه من ضرب، وإن لم يتب

بعد الضرب ينفى من البلد. فـالحسبة تناولت كل ما يتعلق بالمجـتمع وأخلاقه وتقاليـده؛ فقد حـثت على الحفـاظ على نظافة الطرق والرفق بالحـيوان، بألا يحمل ما لا يطيق حـمله، ودعت إلى العناية بالصحة، ومنع معلمي الصـبية من ضرب الأطفال ضربًا مبرحًا، ومراقـبة الحانات وشاربي الخمر، والمجاهرة بإظهار الملاهي المحـرمة مثل الزمـر والعود وسائر المفـاسد والمحرمـات وتبرج النساء، ومنع سيرهن وراء الجنائز، وزيارة القـبور، وغيرها من الأمور المرتبطة بالمجتـمع في حيـاته اليومـية. وكان المحـتسب يقـيم الحدود كذلـك ويضبط الأخلاق. ويـروي لنا ابن الخطيب أن صاحب السـوق أبا بكر بن الأشـبرون لقي سكران من الجند فقبض عليه، واشتد في حده وبالغ في نكاله. ولما بلغته الحسبة في غـرناطة من أهمية انتقل بعض المحتسبـين إلى منصب القضاء مثل أبي بكر محمد الأشبرون. وكان يشتـرط في المحتسب مجموعة من الشروط، فلابد أن يكون: رجلاً عفيفًا، خيرًا، ورعًا، عالمًا غنيًا، نبيلاً، عارفًا بالأمور، محنكًا فطنًا لا يميل ولا يرتشي فتـسقط هيبته ويستخـف به، ولا يستعمل في ذلك خساس الناس، ولا من يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل والمهونة؛ لأنه لا يهاب إلا من كان لـه مال وحسب. وتروي النصوص أن نظام الحـسبة في المغرب والأندلس اسـتمر الأخـذ به طيلة القرون الوسطى. وخـير دليل على أهميـة الحسبة استـمرار الإسبان في إقـرار مهمة المحـتسب ووظيفتـه، وكلما استردوا إقليمًـا من المسلمين أطلقوا عليه اسم Almocadem، وهو الذي توكل إليه مهمة الإشراف على الموازين والمكايـيل. يبدو لنا مما ذكر أن المحتسب كان من أصحاب المناصب الرفـيعة في الدولة الإسلاميـة، ومن أعظمهم نفوذًا ممن كان لهم اتصال مباشـر بالرعية، فقد اتسعت سلطاته ومهـامه فلا يذكر جانب من جـوانب الحيـاة إلا يكون له إشراف عليـه؛ لذلك اشتـرط في المحتـسب معرفته التامة بأمور الشريعة والدين، ومواظبته على سنن رسول الله ﷺ.

الكتابة:

تعتبر وظيفة الكاتب من الوظائف السامية في مملكة غرناطة النصرية، فقد كان الكاتب يعد من أكبر أعوان الخليفة، يتم اختياره من بين كبار الأدباء وأهل العلم؛ كي يمارس الكتابة في ديوان الإنشاء. وكان يشترط في أصحاب هذا الديوان العلم بكل أنواع الكتابة وحسن الخط، وترتيب اللفظ واتساع العلم، وذكاء القريحة وجودة الرؤية. وأشرنا سابقًا إلى استعانة الوزراء بمجموعة من الكتاب، ككتاب الرسائل وكاتب الزمام المكلف بالأشغال الخارجية والمالية. وكان هذا المنصب يحمل أسماء أخرى، مثل: «لواء القلم الأعلى»، و«الرئاسة العليا»، أو «الكتابة العليا لقلم الإنشاء»، وكان كبار الأدباء الذين امتهنوا خط الكتابة غالبًا ما يرتقون إلى رئاسة القلم الأعلى. كانت وظيفة الكتابة موجودة في مملكة غرناطة منذ عهد السلطان محمد الأول الغالب بالله، الذي حفل قصره وديوانه بعدد من الكتاب ممن توافرت فيهم الشروط والمواصفات التي يجب أن يتصف بها كتاب الدولة، مثل الكاتب المجتسب أبي الحسن على بن محمد بن هيضم الرعيني، والكاتب أبي بكر بن أبي عمر اليحصبي اللوشي. وممن تولى هذا المنصب أيضًا الفقيه القاضي أبو بكر بن شبرين، وأبو عبد الله بن عاصم، والفقيه أبو إسحاق بن جابر، وأبو عبد الله بن اللوشي، والرئيس أبو محمد الحضرمي، وممن اعتلى هذا المنصب كذلك شيخ الكتاب ورئيس الديوان أبو الحسن علي بن الجياب، وكان من العلماء وكبار الأدباء الذين حفل بهم عصره. برع في صناعة الكتابة حيث دبّج بقلمه عددًا من الرسائل للسلطان أبي الحجاج يوسف الموجهة إلى من تربطه بهم علاقات من ملوك النصارى والمسلمين. وقد تولى ابن الجياب هذا المنصب في عهد أبي الوليد إسماعيل، ولابنه من بعده السلطان عبد الله محمد، ثم لأخيه السلطان أبي الحجاج يوسف. واستمر في عمله بديوان

الإنشاء حتى ظفر برئاسته إلى أن توفى في محنة الوباء الكبير في 23 شوال 749 هـ/ 4 فبراير 1349 م، كما تولى هذا المنصب لسان الدين بن الخطيب على عهد الملك أبي الحجاج يوسف وتذكر المصادر أحد مشاهير علماء الأندلس الذين تولوا منصب الكتابة بديوان السلطان أبي الحجاج وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن جزي الكلبي، من مواليد غرناطة، أظهر براعته في صناعة الكتابة، حتى فاز بإعجاب معاصريه من الأدباء إلى أن دس له أعداؤه عند أبي الحجاج فغادر الأندلس متجهًا إلى المغرب، فالتحق بديوان الكتابة للحضرة المرينية بفاس لدى السلطان أبي عنان فارس المريني، ومكث ببلاط هذا السلطان إلى حين وفاته يوم 29 شوال 757 هـ/ 23 أكتوبر 1356 م.
فديوان الإنشاء كان له أهمية كبرى داخل النظم الإدارية لمملكة بني نصر، إذا يتولى أصحابه تحرير الرسائل السلطانية وتسطير المراسيم الملكية المتعلقة بتعيين الولاة أو القضاة أو القواد ومن إليهم، كما يدخل ضمن اختصاصات الكتاب أيضًا تحرير القوانين العامة والخاصة، وربما تقلد هذا المنصب وزير السلطان نفسه. لم يقتصر نظام الدواوين بمملكة غرناطة النصرية على ديوان الإنشاء فقط، بل كان بجانبه ديوان الجند المكلف بكل ما يخص جند الدولة، كتحديد أعدادهم، ومقدار رواتبهم، وإثبات عدد عيالهم لتأمين معاشهم. وكان أيضًا ديوان العطاء، وديوان الحساب، وديوان الأعمال، لكن المصادر لم تفصل في تحديد مهام هذه الدواوين. إضافة إلى الوظائف المتعددة التي ذكرناها وجدت وظائف أخرى بمملكة غرناطة كوظيفة التطبيب؛ وكان صاحب هذه المهنة مرتبطًا بالقصر يعمل فيه بانتظام كموظف رسمي. وممن شغل هذا المنصب محمد بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالشقوري، وسيأتي الحديث عن الطب بغرناطة لاحقًا. كما ضم القصر وكيل الدار وقهرمانها وهو المتصرف في الشؤون الداخلية، وممن تولى هذه الوظيفة والد إبراهيم بن فرج بن عبد

البر الخـولاني، الذي تولى أبوه القـهرمة لـثاني ملوك النصـريين فتـأثل مالاً ونباهة. كـان الجيش من أهم المؤسسات الاجـتماعيـة في إسبانيا الإسـلامية، وأهميته تبـرز في ضخامة المسئولية الموكلة إليه، والملقـاة على عاتقه، للدفاع عن كل شبر من أرض البلاد كلما اشتدت وطأة الضغط المسيحي على القواعد الإسلاميـة. إن بقاء أية دولة ومحافظتـها على استقلالهـا رهينان بسياستـهما الدفاعية، وبامتلاكها جيـشًا قويًا من حيث العدة، والعتاد والتدريب، وارتفاع الروح المعنوية، وتحـصـينات منيـعـة من قـلاع وأسـوار وأبراج، ومـواضع إستـراتيجـية. وكـان حكام غرناطة واعين كل الـوعي الإشاكالـيات الظرفـية التاريـخية التي يـعيشـونها؛ لذلك انصـب اهتمامـهم على الجوانب الأمـنية والدفاعية منذ تكوين دولتهم. ومهما كبر حجم هذا الاهتمام فإنه يتضاءل أمام اهتمـام القوى النصرانيـة بجيشـها وبقواتهـا، وتربصها بقـواعد المسلمين في الأندلس من كل جانب؛ فـموقع غرناطة بين ثلاث دول مسـيحية: قـشتالة، وأراغون، والبرتغال جعل شعبها دائم الاستعداد للقتال. وتؤكد بعض المصادر أن أهل غرناطة كانوا يخـرجون إلى الفحوص المجاورة المتاخـمة لحدود العدو أيام الأعـياد حامـلين أسلحتـهم معـهم؛ ليكونوا على أهبـة الاستـعداد لأي هجوم، أو لأي اعـتداء. ولعل الاحتـفالات الشعـبية الـتي تقام إلى الآن في إسبانيا، والتي يمثل خلالها القتال بين المسلمين والمسيحيين فيما يعرف بـ Mo-ros Y Cristianos تعكس بوضوح الحيـاة الحربية التي كانت سائدة في إسـبانيا في العصور الوسطى. كان الملوك النصريون يحرضون على الجهاد الذي يباركه الإسلام ويدعو إليه، ولا سيما وأن غرناطة غدت جزيرة إسلامية تتوسط بحر النصـرانيـة. ويذكر النبـاهي أن القـاضي أبا القـاسم عبـد الرحـمن بن ربيع الأشعـري كتب عن سلطانه في تحريـكه القبائل للجـهاد: بما يشحـذ العزائم ويوقظ النائم. وهذا يعني أن مـهمة التـحريض على الجهـاد لم تقتـصر على

سلاطين بني الأحمر فقط، بل أدى كبراء القوم أيضًا دورهم الكبير في استنهاض الهمم، والدعوة إلى الجهاد كالحاجب أبي النعيم رضوان الله، ولسان الدين بن الخطيب اللذين أسندت إليهما مهمة قيادة الجيش بجانب الوزارة والحجابة كما سبق الإشارة إلى ذلك. ولعل أبلغ ما كتبه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب للحث على الجهاد والترغيب فيه قوله: أيها الناس رحمكم الله، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو ساحتهم، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم، وزحفت القوات أحزاب الطواغيت عليهم، ومد الصليب ذراعه إليهم. وأيديكم بعزة الله القوي، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تحفزوه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه. الجهاد فقد تعين، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبيّن، الله الله في الإسلام، الله الله» في أمة محمد عليه السلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله على الشدائد. جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد. ونستشهد مرة ثانية بقول الشاعر والكاتب والرئيس ابن زمرك الذي يستنهض فيه همم الشعب الغرناطي إذ قال: إن هذا الجهاد وليمة، دعا الله عباده إليها، وحضهم عليها، فالآيات في المصاحف مسطورة، والأحاديث مشهورة، لبيع النفوس فيه للرحمن، وبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الديان، ينزل الله فيها الملائكة المسومين، وتفرح الحور العين، وتسبح الرحمة من رب العالمين ويباهي الله ملائكته بالمجاهدين. كانت حماية المدن الأندلسية تتم وفق نظامين متباينين: أحدهما داخلي يعتمد فيها على الشرطة والعسس، والثاني خارجي وتوكل مهمته إلى الجيش الذي يستقر في القلاع والقصبات والحصون؛ لضبط المراقبة، والتحكم في حماية المدن

وضواحيهـا، وهذا ما يفسر لنا أن العدو المسيحي لـم يستول على غرناطة إلا حين تمكن من حصونها الواحد تلو الآخر في فـترات متفاوتة. كان الجيش في مملكة غرناطة يـتكون من صنفين من الجند: أندلسي ومغـاربي؛ أما الأندلسي فقد كانت تستند قيـادته إلى رئيس من القرابة أو إلى شخص من كبار الدولة، وأما المغـاربي فيعود أصـله إلى قبائل مرينـية كالزناتية والتـيجانيـة والمغراوية والعجيـسية، إضافـة إلى قبائل العرب بالمغرب، وكـان هذا الجيش يرجع في أموره إلـى رئيس هذه القبـائل. وكانت تمثل الفـرق المغاربـية مجـموعـة من الفرسان المتطوعين في الجـيش الغرناطي يعرفون بجنود الغزاة، اشتـهر قادتهم باسم «شـيوخ الغزاة»، وهم مـن الأسرة الحاكـمة من المرينيـين. وقد توارث سلاطين بني الأحـمر هذا التقليـد الحربي في تاريخ إسبـانيا الإسلامـية - أي اعتـمادهم على مشيـخة الغزاة - ولعل هذا التـقليد يعزي أسـاسًا إلى توثيق الروابط العـسكرية، وتبادل الخـبرات الحربيـة بين المغرب والأندلـس، وأيضًا ليكون هؤلاء القـادة العسكريون هـمزة الوصل بين القطرين في كـافة شـؤون المسلمين؛ لذلك لا نعجب إذا رأينا ملوك بني الأحـمر - ومن بينهم السلطان يوسف الأول - يعتمدون على هؤلاء القادة، ويجعلون زمام الأمر بين أيديهم لقيادة الجيش. وقد عين السلطان يوسـف الأول الشيخ أبا ثابت بن عثمان بن إدريس بن عبـد الحق رئيسًـا للجند المغاربي. وقد حظـي هؤلاء الغزاة بالمحل الأرفع والمكان الأنفع داخل بلاط ملوك بني نصر بكل ثقـة واطمئنان. ويعزي اعتماد النـصريين على هؤلاء القادة أيضًا إلى زعيمـهم في التقريب من بلاط فاس، وإلى شـهرة القواد المغاربة وشـدة بأسهم في فنون الحرب، ومواقـفهم المشهودة في الجهاد، وطول تجربتهم في القتال. ويؤكد ابن خلدون هذه الرغبة في الاعتمـاد على أقارب بني مرين سلاطين المغـرب، لكون هؤلاء السلاطين أول من ولي إسبانيا الإسلامية عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لشدة

التنافس بينهم. ومن أبرز الأسر التي أوكلت إليها مهمة قيادة الجيش أسرة العلا «بني العلا»، على رأسها شيخها عثمان بن أبي العلا إدريس بن عبد الله. وكان لهذه الأسرة منذ بروزها على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية أطماع في حكم المغرب، لكن عندما تحطمت آمال زعيمها الشيخ عثمان بن أبي العلا، بعد انهزامه أمام جيش السلطان سليمان ابن ربيع المريني عام 708 هـ/ 1309 م، فر إلى بلاد إسبانيا الإسلامية بصحبة أسرته، والتحق بغرناطة التي كان يحكمها آنذاك السلطان نصر أبو الجيوش (708 هـ/ 1308 - 1313 م) وأوكلت مهمة قيادة جيش إسبانيا الإسلامية إلى الشيخ عثمان في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل (الأول) (713 - 715 هـ/ 1314 - 1325 م) فأبرز هذا الأخير قدراته وكفاءته الحربية في عدة مواجهات ضد النصارى بأرض الجهاد، فنال مكانة مرموقة لدى السلطان النصري؛ فعظم قدر هؤلاء الغزاة، واعترف الملوك بشجاعتهم وكفاءتهم القتالية مما جعلهم يتمسكون بهم، ولعل ما يذكرنا به المقري حول ما كتب على قبر الشيخ عثمان ابن أبي العلاء، لدليل على ما أكدناه سابقًا من قوة وشجاعة هؤلاء القواد المغاربة؛ فقد كتب على قبره: هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال الكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي زمام الإسلام، حاجب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة. ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادمًا بين جموعهم تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار.

وإذا كانت أسرة أبي العلا قد حققت انتصارات عديدة للعرش النصري في حروبه ضد الإسبان، وأدت أدوارًا بارزة في استتباب الأمن والاستقرار داخل مملكة غرناطة، فإنها كانت أيضًا شوكة خطيرة في جنب عرش بني الأحمر؛ إذ أصبحت تتدخل في تعيين الملوك إزاحتهم، كما فعلت مع محمد

أبي الوليد إسماعيل الذي تولى العرش 725 هـ/ يونية 1325 م وثار شيوخ الغزاة عليه، وأعانوا عليه الأمير محمد بن فرج بن إسماعيل. الشيء نفسه سلكوه مع هذا الأخير الذي أزاحوه عن العرش، وقاموا بأنفسهم بتولية الملك الجديد وأخذ البيعة له من الرعية، وهو السلطان أبو الحجاج يوسف الأول. إذًا كانت حياة غرناطة حياة حرب وقتال، وساعدها موقعها الجغرافي المميز، المحاط بجبال وتلال ومغاور وعرة، في التصدي لأعدائها النصارى. وقد أشرنا في الفصل الخاص بالعمران إلى أنه كان من نتائج الصراع المرير الذي عاناه المسلمون في الأندلس ضد القوات المسيحية، أن عمدوا إلى تحسين وسائل دفاعهم وتفننوا وأبدعوا في صلابتها ومناعتها، فاستعملوا تحصينات لتضليل الأعداء ومفاجأتهم، كالأسوار التي أصبحت تضم دربًا يسير عليه المحاربون سماه المؤرخون «ممشى السور» يضم شرفات تقذف منها السهام، وذروات يحتمي بها المجاهدون، دون أن يمسوا بسهام العدو، بينما كانت الأبراج تدعم الأسوار لحماية البلاد من هجومات العدو، وقد بلغت كما أشرنا سالفًا أربعين برجًا. أولى ملوك غرناطة الجيش اهتمامًا بالغًا؛ لإقرار دعائم الطمأنينة والأمن في البلاد، وكان شباب المملكة بارعين في فنون القتال إذ كان الصبيان منذ صغرهم يدربون على السلاح كما يتعلمون القرآن. قال ابن الخطيب مشيرًا إلى الاستعدادات الحربية لشباب غرناطة: والصبيان تدرب على العمل بالسلاح، وتعلم المثاقفة كما تعلم القرآن في الألواح. وهذا يعني أن الظروف القاسية المحيطة بغرناطة فرضت استعمال الأسلحة على جميع أفراد المملكة حتى الأطفال، الذين برعوا واشتهروا باستعمالهم المتقن للقوس والنشاب، وترييش السهام بشكل أثار إعجاب أعدائهم النصارى. وضم الجيش الغرناطي فرقًا من الرماة والفرسان التي اشتهرت ببراعتها في القتال، وكان سلاح أغلبيتهم العصا الطويلة المثناة بعصا ذوات عرى في أوساطها تدفع

بالأنامل عند قذفها تسمى «الأمداس»، كما اعتمد سلاطين بني الأحمر على بعض أنصارهم وأصهارهم كالسلطان محمد بن يوسف نصر الذي أرسى دعائم دولته بمساعدة أصهاره من بني أشقيلولة؛ كون هؤلاء نواة الجيش الغرناطي، تسند قيادتهم إلى أقرباء من الأسرة المالكية أو إلى شخصيات مشهورة بغرناطة. وكان أهل غرناطة دائمي التأهب والاستعداد لمحاربة العدو. ويذكر ابن الخطيب - كما سبقت الإشارة - أنهم كانوا يخرجون إلى الفحوص في أيام الأعياد حاملين أسلحتهم لمجاورة أرضهم أرض العدو.

أما أسلحة الجيش الغرناطي ولباسه فكان في البداية: يشبه زي أعدائهم من جيرانهم الفرنج: إسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وحفا البيضات، واتخاذ أعراض الأسنة، وبشاعة قرابيس السروج واستركاب حملة الرايات خلفه وقال ابن سعيد الأندلسي أيضًا عن زي وسلاح الجيش في الأندلس وكثيرًا ما يتزيًّا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم؛ فسلاحهم كسلاحهم، وأقبيتهم من الأشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم، ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن، ولا يعرفون الدبابيس ولا قسى العرب، بل يعتدون قسي الإفرنج. أما أعلام الجيش الغرناطي، فكانت حمراء، فضلاً عن أعلام أخرى ذات ألوان مختلفة. وتتفق الأوصاف التي أفادنا بها لسان الدين بن الخطيب عن الجيش الغرناطي مع الصور التي رسمت على جدران أحد مباني قصور الحمراء المعروف بالبرطل - يطلق لفظ البرطل على مجموعة من المباني بقصر الحمراء شرق بهو السباع ويقابل البرطل في اللغة الإسبانية El Parca. والقصر يشمل مجموعة من الرسوم على جدرانه، تشير إلى مناظر صيد وفرق الجنود بملابسهم وسلاحهم، وزخارف هندسية جميلة. وهي صور تشير إلى أن ألبسة وأسلحة الجيش الغرناطي تختلف باختلاف فرقه المكونة له؛ ففرق حاملي القسي يرتدون العمائم والجباب ذات

الأكمام القصيرة، وأحيانًا يرتدون قمصانًا مصاحبة بسراويل طويلة تصل إلى الكعبين، بينما فرق حاملي قسي القدم والدرق والسيوف، يغطون رءوسهم بخوذات من حديد بدل العمائم، وقد تتدلى هذ الخوذات من الوراء لحماية القفا. أما الأتباع فيلبسون جبة تصل إلى الركبة، وسراويل طويلة تصل إلى الكعبين، أو قمصانًا مع هذه السراويل، ويغطون رءوسهم بالعمائم. أما لباس الأرجل لهذا الجيش فتتمثل بالأحذية أو الخفاف، بينما جنود الغزاة المغاربة كانوا يلبسون العمائم على رءوسهم، كما شاع لدى جيش إسبانيا الإسلامية استعمال الأقواس الإفرنجية في حروبهم والسيوف أيضًا، خاصة السيوف الغرناطية والتي أعجب بها ملوك إسبانيا المسيحية، والتي كان ملوك غرناطة وفي مناسبات مختلفة يهدونها لهؤلاء الملوك، وهي سيوف بديعة الشكل مزينة برقائق من الذهب والأحجار الكريمة، كالسيف الذي أهداه السلطان محمد الرابع إلى ألفونسو الحادي عشر عام 734هـ/ 1333م. إلى جانب الأسلحة السابقة الذكر كانت أسلحة أخرى متعددة ومتنوعة كالتي تستعمل في الحصار كالمعارج «والمراقي» والسلالم والأكبش وعمدان الحديد، التي كانت تستعمل لاختراق أبواب الأسوار والحصون. وقد ذكر لسان الدين الخطيب استعمال الجيش الغرناطي للمدافع خاصة عند احتلالهم قلعة أشكر Huescar عام 724هـ/ 1324م في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل: ونازل السلطان أشكر ونشر الحرب عليها، ورمى الآلة المتخذة بالنفط، كرة محماة طاقة البرج المنيع، فعاثت عياث الصواعق السماوية، ونزل أهلها قسرًا على حكمه. عن هذه الآلة يقول الشاعر يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي في مدحه السلطان أبا الوليد إسماعيل عند قدومه من فتح هذه القلعة يصف فيها آلة لا تحدث نارًا عند انطلاقها، وإنما تحدث فرقعة وهديرًا لذا سميت بصواعق النفط[1].

---

(1) د. أحمد ثابت - نفس المرجع ص 222.

كان الجيش الغرناطي يخضع لرقـابة صارمة من ولاة الثغور، وكان كل جندي تهاون في رعاية وصيانة سلاحـه يحرم من راتبه، بينما يحظى بمكافأة إذا اهتم بمطيتـه ومعداته. وقـد كان في غـرناطة ديوان خاص بالجند، يهـتم بشؤونهم ورواتبهـم ومرتباتهم. وقـد أعيـد تنظيم سجـلات للجند منذ عهـد السلطان محمد الخامس، لما لهذا الجيش من أهمية في ضمان الاستقرار وحفظ النظام. وبرز بمملكة غـرناطة عـدد من القادة الذين تولوا قـيـادة الجيش وأبلوا البـلاء الحسن في مـعاركهم ومـواجهاتهم ضـد أعدائهم النصارى، نـذكر من بينهم القائد بكرون بن أبي بكر الأشـقر الحضرمي من القـادة العسكريين المحنكين، فارس مقـدام شديد العزم، كان قائـداً للجند بإسبانيا الإسلامـية أيام السلطان ثاني ملوك بني نصر، وجنى الجـيش على عهده مغانم كثـيرة، توفى عام 714 هـ ودفن بمقبـرة قومـه بباب إلبيـرة. كان من عادة ملوك غـرناطة استـعراض جيوشهم أمـام الشعب الغرناطي؛ الذي كان مولعًـا أيضًا بمشاهدة هذه المناظر العسكرية. إذ يتـقدم الملك مع جموع جـيشه في مـوكب عظيم، إما في أثناء اتجاهه إلـى ساحة القـتال، وإمـا عند عودته منهـا بالغنائم والأسـرى. ولقد وصف لنا لسان الدين بن الخطيب في رحلته: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» ركب السلطان أبي الحجاج يوسف الذي انطلق من العاصمة غرناطة يوم الأحد 17 محرم 748هـ/ 29 أبريل 1347م - حيث انتظم الموكب يتقدمه الأولاد الراشدون من ذوي الخبـرة بمسالك الجبال والسهول الأندلسـية، تليهم الأعلام الحمراء شـعار دولة بني نصر. وقد ورد في كتاب نبـذة العصر عرض لجيوش غرناطة فـي المكان المعروف بالطبلة عند باب الغدر Siete Suelos وهو المنظر العظيم الذي فـاجأه الفيضـان المهول لنهر حـدره عام 887 هـ/ 1472 م والذي حملت سـيوله مـرافق وحدائق غـرناطة. كان لمملكة غـرناطة ساحل طويل يمتد من المرية شـرقًا إلى جبل طارق والجزيرة الخـضراء جنوبًا، مما دفع

ملوكها إلى الاهتمام بالمجال البحري. وهـذا ما يفسر وجود العديد من الثغور والقواعـد البحـرية بهذا السـاحل كألمرية ومالقـة والمنكب وبجانة وشلـوبانية والجزيرة الخضراء وجبل طارق. وقد ضـمت معظم هذه القواعد دوراً لصناعة السـفن وبنائهـا، خـاصـة ألمرية والمنكب ومـالقـة التي كـانت المزود الرئيس للأسطول الحربي الغرناطي بكل قطعه اللازمة. وساعد على ذلك وجود أنواع متعددة مـن المعادن في غرناطة. فابن الخطيب أشار إلى المرقشـيثا واللازورد. كما أكـد بعض الجغرافيين وجـود معادن الذهب والفضـة والرصاص والحديد والنحاس والصفر والتـوتياء في منطقة البيرة التي حلت غرناطة مـحلها، كما كانت أشـجار النور تغطي سفـوح جبال الثلـج، والتي شكلت ثروة خشبـية هائلة. مما مكّن غـرناطة من المواد اللازمـة لصناعـة السفن لمواجـهة الأعـداء المسيـحيين من جهة البـحر؛ لذا ازدهرت هذه الصناعة في المدن التابعـة لها؛ لأنها كانت بعـيدة عن البحر المتوسط كمـدينتي مالقة والمنكب التي برعت في صناعة السفن وصناعـة الحراقات. ويؤكد المؤرخ العمري في كـتابه: «مسالك الأبصار» وجود هذا النوع من صناعة السفن على عهد بني نصر.

نتيجة للهجومات المستمرة التي كانت تتعرض لها مملكة غرناطة من قبل النصارى، قام ملوكـها بتحصينهـا، فأنشأوا فيهـا قواعد متعـددة خاصة التي كانت أكثر عرضة للهجوم، وبنوا فيـها أسواراً منيعة وأبراجًا، كأبراج الطليعة التي كان يـعلوها ما يسمى: نـاظور البرج الذي كان ينـبه الحامـية الغـرناطية بالساحل لهجومات الممالك المسيـحية، ويتم إنذارها إما بإشارات الدخان أثناء النهار، وإما بـإضرام النار في أثناء الليل. وبالرغم من الاهتمام الـكبير الذي أولاه ملوك غرناطة أسطولهم البحري، فقد كان هذا الأخير أقل أهمية مقارنة بالأساطيـل المسيحـية، ونسـتدل على ذلك بسـيطرة المسيـحيين أواخـر القرن السادس الهجري/ الثـاني عشر الميلادي على حركة النقـل البحري في حوض

البحـر المتوسط، ثم بتـأكيد الملوك النـصريين في بعض معـاهداتهم مع مملكة أراغون اكتراءهم لسفن حربية، كمـعاهدة الصلح التي عقدها محمد الرابع مع ملك أراغون Don Martin وشقيقـه ملك صقلية في 25 ربيع الأول عام 808 هـ/ سبتـمبر 1405 م، والتي تعهـدت فيها مملـكة أراغون بمد أسطول مملكة غرناطة في حـالة حاجتهـا إلى أربعة أو خمـسة أجفان، في كل واحـدة منها مائتان وعـشرون رجلاً، إلا أنها إعـانة مشروطة بتقـديم مبلغ من المال، لكل جفن مقدار تسعمائة دينار من الذهب شـهريًا مدة الخدمة، وأن تُقدم الدولتان بعضـهما لبعض تـسهيلات بحـرية. وعن الأسطول الغرناطي أشار العـمري قائلاً: وبالبـلاد البحـرية أسطول حراريق للغـزو في البحر الشـامي، يركبـها الأنجاد من الرمـاة والمغاورين، والرؤسـاء المهرة، فيـقاتلون العـدو على ظهر البحر، وهم الظافرون في الغالب ويغـيرون على بلاد النصارى، بالساحل أو بقرب السـاحل، فيـستـأصلون أهلها ذكـورهم وإناثهم، ويأتون بهم إلى بلاد المسلمين، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى السلطان، فيأخذ منهم ما شاء ويهدي ويبيع. كـان الأسطول البحري الغـرناطي يشتمل على عـدة قطع تختلف في أشكالها وأحجامها وفي مهامها أيضًا. فكان الأسطول يضم:

الحـراريق: وهي سـفن حـربيـة تستـخـدم لحـمل الأسلحـة النارية.
العشاري: سفن مـتوسطة الحجم تختص بالرحـلات القصيرة، لكنهـا تلتقي أحيانًا بالسفن الكبيرة؛ لتكون مراكب للنجاة، واسمها يعود إلى كونها تستطيع حمل عشرة أشخاص. **الشواني**: سفينة حربية ضـخمة كانت تتكون من عدة طبقات كـالقلعة تسمى بالإسـبانية Galera مزودة بأبراج وقلاع للدفـاع، كما تضم أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء. **الأجفان**: وهي نوعان: الأولى غزوية، والثانية تستخدم لنقل الخيل. **الطريدة أو الطراد**: سفينة صغيرة أطلق عليهـا الإسبان اسم Tarida وتستخـدم لنقل الخيل. **البطس**: سفينـة حربية

عظيمة تضم عدة طبقات وعدة قلاع، تستخدم لنقل الزاد والذخيرة والرجال. **الأغربة**: هي سفن شديدة البأس، واسمها يرجع إلى اقتراب شكل مقدمتها من شكل الغراب، أو لشدة سوادها. **المسطحات**: نوع من السفن المسطحة أطلق عليها الإسبان اسم Mestech. **القراقير**: سفينة ضخمة تستخدم لنقل المؤن يطلق عليها بالإسبانية اسم Carraca.

ولعل وجود مختلف هذه القطع المصاحبة للأسطول الغرناطي دليل على المواجهات العنيفة والمتعددة التي كانت تتعرض لها غرناطة من جهة البحر من أعدائها المسيحيين. أما دور هذا الأسطول في التجارة فستعرفه في أثناء دراسة النشاط الاقتصادي. إذًا كان جيش إسبانيا الإسلامية يتألف من قوتين: قوة برية ترابط في الأقاليم الأندلسية خاصة كبريات المدن منها، وقوة بحرية ترابط بالثغور كطريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق وألمرية والتي كانت تستخدم الأساطيل لحماية البلاد باستعراضات متعددة يستخدمون فيها الأبواق والطبول. وأشار ابن الخطيب إلى رجال الأسطول في ألمرية، وقد قاموا بعروض عسكرية رائعة عند مرور السلطان بها عام 748 هـ/ 1347 م قائلاً: امتاز خدام الأساطيل المنصورة في أحسن صورة، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول. وكان لهذه القوات البحرية لباس خاص. أما أسلحتهم فالقسي التي كانت تشد بواسطة الرجل أو اليد. ثم المجانيق، كما استخدموا الكلاليب التي يقذفون بها مراكب العدو، يشدونها ويوقفونها، واستعملوا أيضًا أدوات الحصار كالأبراج والسلالم والحبال.

أما مهمة قيادة هذا الأسطول فكان يتولاها ضابط عسكري يدعى: «قائد البحر»، أو «قائد الأسطول» وقد برز بغرناطة عدد من هؤلاء الضباط الذين تولوا قيادة الأسطول في إسبانيا الإسلامية وفي المغرب أيضًا، خاصة أسرة

الرنداحي، نسبة إلى بلدة Randazzo بصقلية. منهـم العباس الرنداحي الذي أعام بأسطوله أبا القاسم العزفي عندما أراد الاستقلال بسبتة وطنجة عن طاعة الحفـصيين ثـم أبو علي الرنداحي المتوفى بمراكـش عام 755 هـ. ومن القادة الذين تولوا قيادة الأسطول الـغرناطي كذلك أبو عبد الله مـحمد بن سلبطور الهاشمي الذي ذكر ابن الخطيب أنه ناب في القيادة البحرية[1].

* * *

(1) د. أحمد ثابت – نفس المرجع ص 229.

العلاقات الخارجية

إلقاء الضوء على الخلفية التاريخية لبلاذ إسبانيا الإسلامية ذلك الجزء الذي احتل من قلب العالم مساحة ليست بالهينة أو اليسيرة، وذلك لأن الإحداثيات العباسية فوق المنحنى التاريخي الواقع على صفحة تاريخ إسبانيا الإسلامية لا يمكن لها أن تنفصل عن باقي تاريخ إسبانيا الإسلامية بل هي صفحات ضمن كتاب عريق، اهتم به مؤرخو الغرب، كما اهتم به أقرانهم في الشرق، ولو أن إسبانيا الإسلامية باعتبارها جزءً من الرقعة الأوروبية حظيت دون غيرها باهتمام مؤرخي أوروبا، الأمر الذي جعل تاريخها أكثر انتشاراً وأوسع معرفة لدى قطاعات عريضة وهو ما لم يتوفر لدولة أو بقعة أخرى شهدت تاريخ الإسلام والمسلمين، ومع تلك المعالم الهامة عن أحداث الأندلس فإن ظهور الدولة العباسية على المسرح التاريخي، أتاح للتاريخ الأندلسي أن يتمتع بهذه الأهمية، أو هذا الاهتمام. وتتجلى أهمية إسبانيا الإسلامية فيما ذكره المؤرخ الكبير (ابن عذارى المراكشي) عن صفة إسبانيا الإسلامية وأهميتها حيث قال: «أما صفة إسبانيا الإسلامية، فإنها جزيرة مركنة (ذات ثلاثة أركان) قريبة من شكل المثلث: الركن الواحد منها عند صنم قادس، والركن الثاني في بلاد جليقية وهو مقابل لجزيرة برطانية، حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق بين مدينة أربونة، ومدينة برذيل حيث هو قرب البحر المحيط الغربي من البحر المتوسط الشامي وكاد البحران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير إسبانيا الإسلامية في جزيرة لولا جزء بسيط مما بقي منها، وهو مسيرة يوم كامل، وفيه مدخل يقال له الأبواب، وفيه تتصل إسبانيا الإسلامية بالأرض الكبيرة، فالأندلس كلها محدقة بالبحر: البحر المحيط الغربي، والبحر المتوسط القبلي ويصعد منه قليل إلى ناحية الشرق، فحد إسبانيا الإسلامية في الشرق والغرب وبعض جوف

البحر المحيط، وحدها في بعض القبلة والشرق البحر المتوسط، إلا أنه يتوسط الأرض كلها وقيل أنه في آخر الأقاليم السبعة. ولعل هذا الذي ذكره ابن عذارى في وصف جغرافية إسبانيا الإسلامية ذكره أيضًا صاحب معجم البلدان (ياقوت الحموي) وزاد عليه أن لفظ الأندلس كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام، ويذكر ياقوت الحموي في كتابه ما ذكره ابن حوقل - التاجر الموصلي - بعد أن طاف أرجاء الأندلس فكتب عنها أنها جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية والأجر والشمر والرخص والسعة في الأحوال وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثني عشر ميلاً بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضًا ويتبينون زروعهم وبيادرهم، وهي تواجه من على البحر تونس من أرض المغرب وإلى طبرقة إلى جزائر بني مزغناي (في بحر المغرب) ثم إلى نكور (في بحر المغرب أيضًا). ثم إلى سبتة ثم إلى أزيلي ثم إلى البحر المحيط، وتصل الأندلس في البر الأصغر من جهة جليقية وهي جهة الشمال ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها، من حد الجلالقة إلى كورة شنترين ثم إلى أشبونة ثم إلى جبل الغور ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق المحاذي لسبتة ثم إلى مالقة ثم إلى المرية فرضة بجاية ثم إلى بلاد مرسية ثم إلى طرسوسة ثم تتصل ببلاد الكفر مما يلي البحر الشرقي في ناحية أفرنجة، ومما يلي المغرب ببلاد علجسكس، وهم جيل من الأنكبردة، ثم إلى بسكونس وورومية الكبرى في وسطها ثم ببلاد الجلالقة حتى تنتهي إلى البحر المحيط. وأما لفظ إسبانيا فقد كان المراد به شبه جزيرة أيبيريا بوجه عام بما في ذلك الأراضي الإسلامية والمسيحية على السواء فهناك إسبانيا الإسلامية وهناك إسبانيا المسيحية.

وكلمة اشتقها العـرب من واندلوس، وهي اسم قبائل الواندال الجرمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميـلادي واستقرت في السهل الجنوبي الإسبـاني وأعطته اسـمهـا. ثم جاء العـرب فعربـوا هذا الاسم إلى إسبـانيا الإسلامـية. وبعد سقـوط مملكة غرناطة وانتهـاء الحكم الإسلامي في إسبـانيا 1492 م، أطلق الإسـبـان اسم أندالوثيـا Andalucia على الولايات الجنوبيـة الإسـبانيـة وهي المنطقـة التي تشمل حـتى اليـوم ولايات قرطـبة وإشـبيليـة وغرناطة. وتفصل إسبانيا عن بلاد الغال (فرنسا) جبال ألبرت أو الرتات التت تتخللها ممرات ومضايق بين البلدين مثل ممر هندايا في الغرب وممر قطالونيا في الشرق، وممر شـيروزوا في الوسط، ويبـدو أن كلمة برت مشـتقـة من كلمة (Porte) أي باب أو ممر. ولكن على الرغم من وجود هذه الممـرات فإن جبال البرتات قد جعلت إسبانيا في عزلة عن بقية أوروبا. وهي في تضاريسها تشبه إلى حـد كبـير تضـاريس المغرب العـربي حتى أن المسلمين سـموها جـزيرة الأندلس مثل جزيرة المغـرب، وجبال البرتات في إسبـانيا تشبه إلى حد كـبير جبال أطلس في المغرب، وجبال الثلج المعـروفة باسم شيلر حول غرناطة تشبه جبال الريف في شمال المغرب، وسهل في الجنوب يقابل سهول تازا وسبو في المغرب ومما يبدو أن هذا التـشابه الجغرافي الكبير بين البلدين كـان له أثر كبير في أن تتزامل وتتشـابه الأحداث فيهـا، فهما في النهاية يشـكلان معًا الطرف الغربي الأقصى للدولة الإسـلامية أيًا كان من يحكمها. أما عـن مناخ إسبانيا الإسلامـية فهو مـتنوع يختلف من منطقـة إلى أخرى، فبينـما يسود جهـاتها الجنوبية مناخ البحر المتوسط المعـتدل، ويدخل جزؤها الشمالي في نطاق مناخ غرب أوروبا البـارد، وأدى هذا التنوع بجانب وعورة تضـاريسها إلى صـعوبة الاتصال بين مناطقها وانعزال كل جماعة من سكانها عن غيرهم.

ويعتبر جبل طارق قاعدة الوصل بين المغـرب وإسبانيا الإسلامية، ويقع هذا الجبل في أقصـى جنوب إسبانيا، وبلغ ارتفاع بـعض أجزائه حوالي 438 متراً.

وكان يسمى قبل الـفتح الإسلامي بأسماء عديدة أهمهـا الاسم الفينيقي Mons Calpe أي الجبل الأجـوف. إذ كان هذا الاسم يطلق أصلاً على مـغارة كبيرة في هذا الجبل سماها الإسبان فيما بعد باسم مغارة القديس ميخائيل، ثم أطلق عليها الإنجليز بعد احتلال هذه القاعدة اسم مغارة القديس جورج، وقد وصفـه العرب بغـار الأقدام لوجـود آثار أقدام فـيه، وبعـد الفتح الإســلامي لإسبانيـا أطلق المسلمون على هذا الجبل اسم الصخرة، وفرضـة المجاز وجبل الفتح، وجـبل طارق. وهذا الاسم الأخير هو الاسم المعروف به حـتى اليوم في جميع اللغات نسبة إلى فاتح إسبانيا الإسلامية الشهير طارق بن زياد.

وهناك مـضيق جـبل طارق الذي من خـلاله يمكن - في يوم صحـو - رؤية الشاطئ المغربي من الشاطئ الإسباني وبالعكس. وفي هذا نرى أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن إسبانيا الإسلامية، مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما.

فكل من البلدين إذن يعـتبـر منطقة أمـان للآخر، وامتـداداً له في الدم والجـوار، والأخذ والعطاء. ومن هـنا وجدنا دائمـًا ذلك الصـراع التقليـدي المستـمر بين الشـاطئين الأفريقي والأوروبي حـول السيطرة على هذه المـنطقة المحيطة بالمضيق والتي تعرف باسم العـدوتين. عدوة المغرب، وعدوة الأندلس والعدوة هنا مـعناها الجانب أو الشـاطئ، حتى إن البـعض من الجيـولوجيين يذهب للاعتقاد بأن البـلاد المغربية كانت متصلة بإسبانيـا في العصور الجليدية في العصر الحجري القديم، وقد استـدلوا على هذا من البقايا البشرية العظيمة

التي عثروا عليها في الكهوف والمغارات الساحلية في هذه المنطقة مثل مغارات قلب (Calpe) في جبل طارق، ومغارة العالية وأشقر بجوار طنجة، ودار السلطان جنوب الرباط، والخنزيرة جنوب الجديدة، وعلى هذا يفترض أن عبور الإنسان العاقل إلى أوروبا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد في منطقة المضيق، وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف. والطبيعة الإسبانية الجبلية كانت دائمًا بمثابة شبكة دفاعية قوية فالسلاسل الجبلية والوديان النهرية التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، شكلت خطوطًا دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من الشمال، وقامت على هذه الوديان، مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط، وقد برزت هذه الظاهرة على وجه الخصوص في ظل العهد الإسلامي في إسبانيا حين استغل المسلمون هذه الظاهرة الطبيعية في الدفاع عن أرضهم ضد المسيحيين في الشمال، ورأينا على نهر أبرو، وهو الخط الدفاعي الأول في الشمال لمدينة سرقسطة وكانت تسمى بالثغر الأعلى، وعلى نهر التاجو وهو خط الدفاع الثاني نشأت مدينة طليطلة وسميت بالثغر الأدنى، وبنيت كذلك عواصم إسبانيا الإسلامية مثل قرطبة وإشبيلية وقادس على نهر الوادي الكبير. وهكذا تداخلت الطبيعة الجغرافية تشارك هي أيضًا في صنع تاريخ إسبانيا الإسلامية وتصبغه بصبغة من ملامحها، وتلونه بألوان من فرشانها، فكان لابد إذن من هذا التقديم الجغرافي للمبحث التاريخي الذي نحن بصدده وشأنه[1].

شهد العصر العباسي الأول الذي يمتد من 132 هـ إلى 232 هـ مرحلة هامة من مراحل تاريخ إسبانيا الإسلامية سياسيًا وحضاريًا، مما كان له أعظم الأثر في توجيه السياسة الخارجية للعباسيين مع قوى غرب البحر المتوسط.

(1) د. نايف عبيد جابر السهيل – السياسة الخارجية للدولة العباسية، ص 158.

وتبدأ أحـداث هذه المرحلة مع حلول عام 129 هـ، حيث المرحلة الأخيرة من فترة الولاة في إسبانيا الإسلامية. فقد تولى يوسف الفهري المضري الإمارة في ربيع الثاني لهـذا العام، وكـان قد تولى الإمارة بعـد اشتداد الفـتنة والخلاف وتفاقم الخطر فـي إسبانيـا الإسلاميـة، واتفق الزعماء علـى أن يتولى يوسف الولاية لمدة عام، ويتولى بعده أمير من اليمنيـة، بحيث تتبادل المضرية واليمنية الحكم لكل منهما لمدة عـام، وقد حارب اليمنية، ولكـنه أسند للصميل ولاية سرقسطة ليبعده عن مقر الإمارة، ووجه يوسف جهوده لإصلاح شئون الإمارة خاصـة بعد أن حاول النصـارى في الولايات الشمـالية استـرجاع السلطة في أقاليـمهم. ومما زاد من المشاكل حـلول القحط بإسبـانيا الإسلامـية على أربع سنوات من 131 هـ إلى 135 هـ مما حمل كـثيـراً من الناس على ترك إسبـانيا الإسلامـية إلى المغرب العـربي، وكذلك مما زاد في اضطراب الأمور سـقوط الدولة الأمـوية 132 هـ، وهكذا اخـتـتم زمن الـولاة أحـداثه بظهـور الفتن والاضطرابات والثورات. وفـقد المسلمون تلك المناطق في جنوب فـرنسا التي رويت بالكثير من دماء شهدائهم فقد اسـتولى الفرنج على سبتمانيا، ولم يبق في يد المسلمين إلا مدينة أربونة سنة 138 هـ، التي وصل إليها ببين ابن شارل مارتل بجيـشه القوي، وضرب عليـها حصاراً طويلاً صمـد له المسلمون طيلة أربعة أعوام، حتى استعان ببين بخـيانة القوط داخل مدينة أربونة فدخلها عام 142هـ/ 759م. وهكذا انتهى التـواجد الإسلامي فـيما وراء جبـال البرنيس، بعد وجود دام قرابة نصف قـرن، وفي نفس الوقت تمكن النصارى القوط من تكوين إمارة يبسطون منها سلطانهم على بلاد المـسلمين في الشمال وساعدهم القحط الذي حـل بالأندلس وجعل المسلمين يجلون عن تلك البـلاد. ولكننا في هذا الصدد، لا ننسى أنه رغم محاولات شـارل مارتل وتجمع أوروبا كلها لمحاولة إجلاء المسلمين، وبعد خطوط القتال، وتغير ظروف البيئة فإن كل هذا

لم يثن المسلمين عن الإصرار على مواصلة الجـهاد، والتمسك بما في أيديهم. وبدأت الأحداث السيـاسية لبلاد إسبانيـا الإسلامية تشهد تطوراً جـديداً بقيام الخلافة العباسية 132 هـ/ 751 م. إذ تمكن أحد أبناء البيت الأموي وهو عبد الرحمن ابن مـعاوية بن هشام بن عبـد الملك (الداخل) من الهرب - من بني العبـاس - إلى المغرب حيث لجأ إلى إحـدى قبائل البـربر التي حمته، فـأخذ يراسل الأمويين في الأندلس منتـهزاً فرصة النزاع بين المضريـة واليمنية، وبدأ بتكوين الجيش الذي تحرك به إلى إسـبانيا الإسلامية. وحـاول يوسف الفهري والي إسبانيا الإسلاميـة إذ ذاك الإيقاع بين عبد الرحمن وجنده، ولكن أنصار عبد الرحـمن أصروا على أن يتنازل يوسف لعبد الرحـمن عن الملك، وكانت المواجهة العسكرية في موقعه «المصارة»، وهو يوسف والصميل، ثم دخل عبد الرحمـن قرطبة وصلى الجـمعـة بالناس في المسجـد الجامع وقـد أكرم عـبد الرحمن يوسف والصميل - بعد ذلك - وعـفا عنهما، ولكن يوسف غدر - بعـد ذلك أيضًـا - ثم قتل بعـد إخـماد فـتنتـه على يد عـبـد الله بن عمـر الأنصاري، وقـد قضى عبـد الرحمن جهـداً عظيمًا في مـحاربة ثورات وفتن العـرب والبربر والأقـارب، وكان عـبد الرحـمن راجح الحلم، واسع العلم، حتى إن أبا جعفر المنصور وصفه بصـقر قريش، وقد عمل عبد الرحمن على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الخـضوع والانقياد للدولة وليس للعصبية ولا للقبـيلة، ونظم الجهـاز الحكومي، وأنشأ الحجـابة، واهتم بالجيش وحـشد له المتطوعة والمرتزقة، وبلغ الجيش في عـهده مائة ألف مقاتل، واهتم بالأسطول كما اهتم بمدينة قرطبة فسورها، وبدأ في إنشاء المسجد الأموي الجامع فيها عام 170 هـ، وأتمه ابنه هشام، وأنشأ داراً للسكة تضرب فيهـا النقود حسبما كانت تضرب في دمـشق أيام بني أمية وزنا ونقشـا. وتوفى يوم الثلاثاء لست خلون من ربيع الآخر عام 172 هـ.

تولى هشام بن عبد الرحمن إمارة الأندلس بعهد منه، بعد أن آثره لإقناعه بأنه الجدير بها بين أبنائه، وقد ثار عليه أخوه الأكبر سليمان، ولحق به أخوه عبد الله البلنسي، ثم حين فشل سليمان عاد إلى هشام طالبًا العفو، فعفا عنه، وعبر سليمان هو وأخوه عبد الله إلى عدوة المغرب وأقاما فيه سنة 174 هـ. وثار على هشام كذلك سعيد بن الحسين الأنصاري. وثار على هشام كذلك البربر عام 178 هـ، فسير إليهم جيشًا كبيرًا بقيادة عبد القادر بن أبان مولى معاوية بن أبي سفيان فشتت جموع البربر، وبالقضاء على الثورات استتبت الأمور الداخلية في البلاد ولكنها كانت دافعًا لتحرك الدول والإمارات المسيحية فأغاروا على حدود الإمارة الأندلسية، واقتطعوا منها الأجزاء وخاض هشام معارك عديدة، في أعوام 175هـ، 177هـ، 179هـ، حيث اصطدم بالعديد من النصارى وملوكهم في ألبة وجرنده، وجليقية، وضرب هشام بهذا المثل في الذود عن حدود المسلمين، وكذا فقد اهتم هشام بمسجد قرطبة، وأنشأ عدة مساجد أخرى، ونشر العدل متحريًا الحكم بالسنة والكتاب، حتى أنه قال لأحد الرجال وقد جاءه شاكيًا القاضي: «والله لو سجل على القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه انقيادًا منه للحق»[1]. وتوفى هشام في صفر 180 هـ، وتولى أمور الإمارة من بعده ابنه الحكم وكان أقوى الأمراء وقد أخمد ثورة المولدين ودانت له طليطلة، وكذلك أخمد ثورة الربض. وقد دارت بين الحكم وبين الفرنج عدة معارك في عام 192 هـ حين تجهز الفرنج بقيادة لويس بن شالمان، وكذلك في عام 196 هـ حين واجه الفونس ملك جليقية، وكان آخر غزو للمسلمين في الشمال في عهد الحكم عام 200هـ في جليقية، وحول نهر أرون، وقد أعطى الحكم عناية فائقة للجيش حتى قال ابن عذارى في

---

(1) د. نايف عبيد - نفس المرجع ص 161.

كتابه «البيان المغرب»، «أنه كان للحكم ألف فارس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يحاط به. وتولى الإمارة من بعده ابنه عبد الرحمن بن الحكم في 206 هـ، وقيل له عبد الرحمن الأوسط، وعاصر المأمون والمعتصم، وكان لا يقل عنهما قوة وعزمًا وشهرة، وهو الذي استكمل فخامة الملك بالأندلس وكسا الخلافة أبهة الجلالة. وثار عليه أهل ماردة، وأهل طليطلة، وقد تصدى عبد الرحمن في حزم لكل هذه الثورات وكذلك فقد قبض على أبي لوخيو القسيس المتطرف الذي أراد أن يضرم نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين، وقد قتله عبد الرحمن فضعفت الفتنة شيئًا فشيئًا حتى زالت من نفسها. وقد حارب كذلك في حدود إمارته في ألبة والقلاع وفي منطقة الشمال الشرقي التابعة للفرنج، وبرشلونة، واجتاز دروب ألبرت إلى بلاد الفرنجة وعاش في نواحيها، وعاد سالمًا عام 226 هـ، وفي عام 231 هـ أرسل جيشًا بقيادة ابنه محمد إلى جليقية، ووصل إلى مدينة ليون وذلك بعد أن كان النورمان قدموا بأسطولهم وهاجموا أشبونة حتى أجلاهم جيش عبد الرحمن. فقد قام عبد الرحمن بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمعمارية والصناعية والزراعية ورفع من شأن الوظائف العامة، وارتفع شأن الإمارة الأموية في عهده، وأصبحت الدول تخطب ودها، وتقيم معها علاقات سياسية، هذا وقد توفى عبد الرحمن الأوسط في ربيع الآخر عام 238 هـ. وظل الحال على هذا المنوال في إسبانيا الإسلامية، فالإمارة تنتقل من أمير قوي إلى آخر أقوى وأعظم خلا بعض الفترات العصيبة التي تعرضت لها البلاد، فلم يكن عهد الدولة الأموية بإسبانيا الإسلامية عهدًا كله هدوء وسكينة، فلقد تعرضت في فترات متعددة من تاريخها المعاصر للعباسيين لهزات عنيفة كان من الممكن أن تؤدي إلى إحداث خلخلة في بنائها

وتقوض أركانها. وهكذا بينما كان نجم العباسيين يسطع في بغداد كانت قرطبة تزهو وتتألق وتسير نحـو المجد بخطى حثيثة، وأمراؤهـا يعلو صيتهم، وتزهو مكانتهم بين حكام العالم، ولم يكن أدل على قوة إسبـانيا الإسلامية أكثر من نضالـهم على عدة جـبهات فـهم يغزون الـنصارى. في الشـمال ويخـمدون الثورات في الداخل. حتى امـتد سلطان الإمارة الأموية في إسبانيـا الإسلامية إلى ما وراء البحر في العدوة، ويسارع حكام المدن والولايات في الدخول في طاعة أمـراء إسبانيا الإسـلامية[1]. كان أمام العبـاسيين أربعة بدائل في رسم سياستهم الخارجية تجاه الإمارة الأموية بإسبانيا الإسلامية وتلك البدائل هي:

(أ) إما الإهـمال وعـدم المبالاة بوجـود تلك الإمارة المسلمـة التي لابد للخلافة العـباسية في تصريف أمـورها، أو تدبير شئونها. (ب) إمـا الاهتمام بالقضاء عليها واستخدام المؤامـرات الداخلية كوسيلة لتنفيذ هذا الغرض، وقد اتخذت الثورات التي قامت ضد أمراء إسبانيا الإسلامية كأدوات ووسائل لهذا الغرض. (جـ) إما الاهتمام بالقضاء عليها، ولكن باستخدام المؤامرات الدولية كوسيلة لـتحقيق هذا المأرب العـباسي. (د) إما الاهتمام بمديـد الود والتقرب منها، ومحاولة استمالة حكامها نحو الخلافة العباسية.

فرض الأمر الواقع على العباسـيين أن يلجأوا إلى البدائل الأربعة، ذلك أن العلاقة بين إسبـانيا الإسلامية والدولة العباسـية نشأت ترتوي جذورها من ماء التوتر، وتسـتقي من ينابيع الاضطرابات والقلق، لأن سيـوف بني العباس لم تزل تنكل ببني أمـية، وتعمل على إبادتهـم بعد تقويض عـرشهم، إلا أن واحدًا من بني أمـية نجح في الإفلات من أيدي العبـاسيين - رغم المحاولات العديدة التي قاموا بهـا لاقتناصه، وأسس الإمارة الأموية بإسبانيـا الإسلامية.

---

(1) د. نايف عبيد - نفس المرجع ص 164.

وهكذا نرى أن أولى لَبِنات التـوتر بين الخلافـة العبـاسيـة في بغـداد والإمارة الأموية في إسـبانيا الإسـلامية، قـد تم إرساؤها بالخطوات التي خطاها عـبد الرحمن بن معاوية وذلك حين لجأ لمنطقة الاضطرابات والتمرد والثورات على العباسيـين وحكمهم، فالمغرب العربي في ذلك الوقت كان يمثـل جرحًا غائرًا في الجسـد العباسي. وكان العـباسيون يعـلمون تمام العلم مدى طموح عـبد الرحـمن بن معـاوية، وحلمه الكبـير في إعـادة ملك بني أميـة في الأندلس والمغرب، لذا - بكـل تأكيد - كـانت هذه الرحلة التي قطعهـا عبـد الرحمن للمغـرب، هي رحلة قطعها على طـريق تمزيق آمال العبـاسيين في لم أطراف الدولة الإسـلامية من أدناهـا إلى أقصاها تحت رايـتهم، وقد تأكـد هذا حين سادت إسبانيا الإسلامية قبل قيام الإدارة الأموية الفوضى والاضطرابات، وقام النزاع بين المضرية واليمنية فيها، حتى إن إسـبانيا الإسلامية ظلت أربعة أشهر بغيـر أمير، حـتى اتفقوا على يوسف بن عـبد الرحمن بن حـبيب بن عبـيدة الفهري واليًا عليها، ومن خلال هذا الـصراع لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل، في أن يجدد دولة أجداده، وشـرع في استغلال هذا الوضع لمصلحتـه. فلما عرض بدر مـولى عبد الرحمن علـى اليمنية رغبـة مولاه في دخول إسبانيا الإسـلامية بشرط أن تناصره اليمنية رحبـوا بذلك ترحيبًا بالغًا. فبـادر بركوب البـحر، ودخل الأندلس فـي عام 138 هـ، وسمي بالداخل، وخاض عدة معـارك ضد منافسيه حتى دانت له البـلاد، وأنشأ الإمارة الأموية بإسبانيا الإسلامية. وبـنجاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولة الأندلس، أصبـحت الدولة الإسـلامية - ولأول مـرة - منذ ظهور الإسـلام، تتنازعـها الرايات المتعددة، فهناك الخلافة الإسلامية في بغداد، وهناك دويلات المغرب، وها هي إمارة إسبانيـا الإسلامية تبرز منفصلة عن الوحدة الإسلامـية انفصالاً كاملاً، واضعة بهذا أولى أسس الانقسام في العالم الإسلامي الذي سيشهد -

حين تتراخى قبضة الخلافة العباسية - عمليات انقسام مروعة في كل أرجاء الدولة الإسلامية بين مختلف الأهواء القومية والشعوبية وحتى تلك التي تستند إلى دعاوى دينية كالدولة الفاطمية. وهكذا كان التحدي الصارخ من الجانب الأموي، وهذا العجز الاضطراري من الجانب العباسي، هما حجر الزاوية في تشكيل أساس العلاقات بين الدولتين المسلمتين، وهكذا أيضًا وجدنا إهمال العباسيين هذا الذي حدث في البداية، إهمالاً قد يكون لبعد المسافة بين حاضرة الخلافة بغداد وحاضرة الأندلس - قرطبة - أو يكون لانشغال الخلافة العباسية بأمور داخلية فيها، كما حدث بالنسبة لثورة محمد النفس الزكية، وهكذا، ما أن انتهت هذه الأسباب إلى زوال، حتى زالت معها حالة الإهمال وتحولت إلى حالة الاهتمام بغرض القضاء على الإمارة بإسبانيا الإسلامية وسعى الخليفة المنصور حثيثًا لخلع عبد الرحمن، وإسقاطه وتحويل إسبانيا الإسلامية ولاية عباسية، ففي 146 هـ، سير المنصور، قائده العلاء بن مغيث عبر البحر من إفريقية، فنزل الأندلس، ولبس السواد، واجتمع إليه خلق كثير ودعا لأبي جعفر المنصور في باجة بغرب إسبانيا الإسلامية، وتطلع أكثر أهل إسبانيا الإسلامية إلى خلع عبد الرحمن، وعلى الأخص منهم، جماعات اليمنية التي عقدت العزم على التخلص من ابن معاوية ويبدو أن العلاء بن مغيث اختار الوقت المناسب للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية، فقد كانت الثورات تجتاح إسبانيا الإسلامية في شماله وجنوبه، وكان الأمير مشغولاً وقتئذ بإخماد إحدى ثورات القيسية بمدينة طليطلة، وعلم وهو يقيم الحصار على هذه المدينة بثورة العلاء، وانضمام باقي الثورات إليه، فخرج لمواجهته، ولكن العلاء زحف إليه بجموع كثيفة وتحصن عبد الرخمن بقرمونة، ثم هاجمه العلاء، وتحول الموقف لصالح عبد الرحمن الذي انقض وجيشه على العلاء وأتباعه، فهزم العلاء ومزق جيشه، وقتل العلاء نفسه، وأمر عبد

الرحمن بإرسال رأسه مع أحد رجال قرطبة المسافرين للحج لكي يضعها أمام سرادق الخليفة العباسي، فلما نظر إليه المنصور ارتاع وقال: «إنا لله، عرضنا بهذا المسكين للقتل، والحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان.

فمما لا شك فيه أن انسلاخ بلاد إسبانيا الإسلامية عن الدولة العباسية قد أصابها في عضدها وأوهن قواها من ناحية قدرتها على السيطرة على أطرافها، فلما لم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد عمل على استمالة عبد الرحمن وأرسل إليه الرسل، وكثيرًا ما كان إعجابه به، وبمقدرته، وبعزيمته التي جعلته - وهو شريد طريد - يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة، وليس أدل على هذا من أن لقب «صقر قريش» الذي اشتهر به عبد الرحمن الداخل، أطلقه الخليفة المنصور نفسه على عبد الرحمن الداخل حين قال يومًا لبعض جلسائه: «أخبروني من صقر قريش من الملوك قالوا: ذلك أمير المؤمنين (يقصدونه هو) الذي راض الملوك، وسكن الزلازل وأباد الأعداء، وحسم الأدواء. قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمعاوية. قال: لا. قالوا: فعبد الرحمن بن مروان. قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمل عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه، وعبد الملك ببيعه أبرم عقدها، وأمير المؤمنين، يطلب غيره، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، فأذل الجبابرة الثائرين، فقال الجميع: صدقت يا أمير المؤمنين».

استمرارًا لسياسة العباسيين في الاهتمام بالقضاء على الدولة الأموية في إسبانيا الإسلامية باستخدام الثورات الداخلية فيها لتقويض الحكم الأموي، فقد شهدت خلافة المهدي العباسي عدة محاولات في هذا الصدد، خاصة، وأن المهدي قد استفاد من التجربة الأولى في عهد المنصور، فلم تبعث في عهده الدولة العباسية داعية من دعاتها هذه المرة، ولا جيشًا من المغرب العربي لغزو إسبانيا الإسلامية، وإنما اعتمد المهدي على الدهاء والدس، ولأنه - أي المهدي - كان يحجم عن تجريد الجيوش لبعد الشقة، ووعورة الطريق، وإتعاب الجند بالمسير في صحراء المغرب العربي، وكذلك قوة عبد الرحمن الذي فكر في انتزاع الشام من العباسيين لولا أن حالة بلاده الداخلية تطلبت العدول عن هذه الرغبة، فاكتفى كل من الحاكمين بمعاد له قوى الآخر، غير أن المهدي العباسي حاول أن يتفق مع بعض ثوار إسبانيا الإسلامية من المغرب المعارضين للوجود الأموي، وذلك على القيام بثلاث ثورات في آن واحد في داخل إسبانيا الإسلامية إمعانًا في تحقيق الاضطراب داخل كيان الإمارة الأموية في إسبانيا الإسلامية وقد اعتمد المهدي - لتحقيق ذلك على - عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي، وسمي بالصقلبي لأنه كان طويلاً أشقرًا، أزرق العينين، وقد ثار ابن الفهري بتدمير 162 هـ، وكان قد سار من تونس، وعبر البحر، وكتب إلى سليمان بن يقظان الأعرابي وإلى برشلونة بحثه على الدخول في أمره، ومحاربة عبد الرحمن الأموي، والدعاء إلى طاعة المهدي، فلم يجبه سليمان، فاغتاظ عليه، وقصد بلده فيمن معه من البربر، العرب العاربة، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تدمير، وكانت مهمة سليمان بن يقظان الأعرابي الزحف إلى سرقسطة، وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصاري، أما الرماحس بن عبد العزيز الكناني والي الجزيرة الخضراء، فكان عليه أن يعلن الثورة في نفس الوقت في جنوب

الأندلس حتى يعجز عبد الرحمن الداخل عن القضاء على الثورات جميعًا ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم، واختلفوا في توقيت حركاتهم، فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضي على كل ثورة على حدة، وقد أراد عبد الرحمن أن يبدأ بالأخطر والأقوى، فاختار أن يبدأ بعبد الرحمن الفهري - الصقلبي - لأنه فيما يبدو المحرك وراء الآخرين، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وأحرق السفن تضييقًا عليه، حتى لا يتمكن من الهروب أو أن يفلت، ولكن الفهري - الداهية - هرب إلى جبل منيع بناحية بلنسية، ومن هناك أرسل إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة، ولكن سليمان لم يجبه، ولجأ عبد الرحمن الفهري عند رجل من البربر يقال له مشكار البربري، فاطمأن إليه الصقلبي. ولكن عبد الرحمن الداخل، كان قد أعلن أن يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأس الفهري، فاغتاله مشكار طمعًا في المكافأة، وأتى برأسه في أواخر 162 هـ، 778 م.

يبدو من سياق الأحداث التاريخية في هذه الفترة أن المهدي كان يعلم بتفاصيل هذه الخطة التي دبرها للقضاء على الأمويين في الأندلس، ويتابعها أولاً بأول حتى أن أعوانه، وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني، حينما أرسل إليه عبد الرحمن الداخل وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش، وباغته بالهجوم على قصره في الجزيرة الخضراء، ففر الرماحس على مركب جازبة البحر، حتى قدم الخليفة المهدي. وفي أواخر 163 هـ، ثار سليمان الأعرابي بسرقسطة، وثار معه حسين ابن يحيى الأنصاري، فبعث إليهما ابن قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف، فقاتلهما ثعلبة قتالاً عنيفًا، وعاد يومًا إلى مخيمه، فانتهز سليمان هذه الفرصة، وخرج عليه وأسره فتفرق عسكره، وعمل سليمان على الإفادة من أسيره، فترك على سرقسطة صاحبه حسين بن يحيى الأنصاري، ومضى هو، وأسيره إلى إفرنجة حيث

قابل شارلمان وسلمه ثعلبة. ولم تفلح محاولات المهدي في تقويض حكم الأمويين بالثورات الداخلية وإخضاع الأندلس إلى الدولة العباسية، وهكذا فقد بذل العباسيون كل ما في جعبتهم من ناحية القضاء على الأمويين باستخدام هذه الفتن والاضطرابات الداخلية، ولكن العباسيين أيضًا، لم ينسوا جانبًا هامًا من جوانب الصراع بينهم وبين الأمويين في الأندلس، ألا وهو استخدام العنصر الدولي في خدمة أغراض العباسيين لتحقيق الغلبة لهم في الصراع. وقامت لأول مرة تحالفات إسلامية - إفرنجية، وتحالفات إسلامية - بيزنطية، ذلك أن الخليفة المنصور حينما لم يظفر بشيء من وراء سياسته في إثارة الاضطرابات الداخلية في طرق باب «بيبين» ملك الإفرنجة، رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل، فأرسل إليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين، ثم عادوا إلى المنصور بصحبتهم سفراء الفرنجة، ثم عاد هؤلاء إلى «بيبين» محملين بالهدايا الشرقية النفيسة، وقد نتج عن هذا أن عبد الرحمن الداخل لم يظهر عداءه الحربي تجاه الخليفة العباسي، وقد أصابته رهبة من هذه الوفود العباسية - الفرنجية، وهجوم الفرنج على مدينة «أمر وارد» (التي تقع على الحدود بين إسبانيا الإسلامية وبلاد الفرنجة)، فاستطاع المنصور أن يحد من طموح عبد الرحمن الحربي، باستخدام الوسائل السياسية، التي سيتبعها أبناؤه من بعده أيضًا، في تعاملهم مع الإمارة الأندلسية، وقد وجدت هذه السياسة العباسية قبولاً لدى الفرنجة، فالعلاقات بين الأندلس والفرنجة تكاد تكون سلسلة من الحروب والغزوات رغم وجود جبال البرانس بينهما، فالفرنج ظلوا دائمًا يتحرشون بإسبانيا الإسلامية، ويعملون على التدخل في شؤونها، ويحرضون نصارى الشمال على مهاجمتها وقد وضع الفرنج تجاه أعينهم سياسة هدفها إخراج العرب المسلمين من سبتمانيا، والحصول على مركز قوي تجاه إسبانيا الإسلامية، ذلك أن المسلمين رغم هزيمتهم في بلاد

الشهداء 114 هـ بقيت سبتمانـيا بأيديهم مدة من الزمن، يشنون منها الغارات ضد أملاك الفرنجة الجنوبية ويعيثـون فيها تخريبًا، وقد أيقن «بيبين» أن الوقت قد حانَ لغزو سبتمانيـا في ظل اضطرابات الأندلس، وتحت تشجيع العباسيين ورعايتهم، وقد نجحت محاولاته المتكررة في انتزاع هذا الإقليم من المسلمين، في بداية لمأسـاة انتـهاء الوجـود الإسـلامي في هذا الجـزء، وبأيدي المسلمين أنفسهم، وبذلك أصبح «بيبين» في مركز قوي، يستطيع منه إثارة الاضطرابات والتدخل في شمال الأندلس.

سار ملوك الدولة الكارولنجية (الفرنجـة) بعد «بيبين» على نفس السياسة التي سار عليـها، واستـغلوا كل فتنة أو ثورة في الأندلس، مثلمـا حدث مع سليمـان الأعرابي وحسين الأنصاري، وبالتنسـيق مع الخليفة المهدي العـباسي الذي رأى أن تهاجم الفرنجة الأندلس، والثورات الداخلية تشتعل فيها، ويذكر ابن الأثير أن سليمـان الأعرابي استدعى قارلة ملك الإفـرنج، ووعده بتسليم البلد وثعلبة إلـيه، فلما وصل إليـه لم يصبح بيده غـير ثعلبة، فـأخذه، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفـداء فأهمله عبد الرحمن مـدة، ثم وضع من طلبه من الفرنج، فأطلقـوه. وقد التزم شارلمان بالاتفاق المعـقود بينه وبين المهدي، ولهذا لم يتردد في السير إلى إسبانيا الإسلامية، فخرج على رأس جيوشه في 161 هـ، متـجهًا نحـو جبـال البرتات (البرانس) عـبر ممر رنسـغالة، وهاجم بتبلونة، واسـتولى عليهـا، ثم واصل زحفه إلى سرقـسطة، وهو يعتقـد أنها ستـفتح له أبوابها، إذ كـان سليمان قد مـهد السبـيل أمامه لدخـولها، ولكن حسين بن يحـيى الأنصاري أغلق أبوابهـا دونهما، وأصم أذنيـه عن توسلات صاحبه سليمـان وطال وقوف شارلمان أمام المدينة عبثًا حتى يـئس من فتحها، وكانت قد وصلته أنبـاء عن قيام اضطرابات وفتن في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينـة، وقفل عائدًا إلى بلاده، وقد أرغم سليمـان على التراجع

معه لعجـزه عن تحقيق ما وعد به من إدخاله المدينة. انسحب شـارلمان بجيشه إلى غالة (فـرنسا الحالية)، ولما بلغ بنـبلونة سحب حاميـتها الفرنجـية، وهدم أسوار المدينة، ولكن عـبد الرحمن الـداخل لم يتركه يرحل دونما مـتاعب أو قلاقل، فأثـار عليه قبائل البـشكنس، فترصدوا مـؤخرة جيشه الكـبير، وهو يجتـاز أحد شـعاب رنسـغالة (ممر في جـبال البـرتات)، وأمطروها وابلاً من السهام، والحجارة حتى قضوا على مؤخرة جـيشه الكبير، قضاءً مبرمًا، وقتل فيه عدد كبير من أعظم قواده، تذكر المصادر منهم صفية وأعظم قواده رولان، Roland وكان مـصرعـه أنشودة من شعـر الملاحم الفرنسـية، تعـرف بأنشودة رولان، واضطر شـارلمان إلى مهـادنة عبد الرحـمن الداخل ليـتفرغ لمشـاكله الداخليـة، ويقـول المقري في هذا: «وخـاطب عـبد الرحـمن شـارلمان ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صلب المكسر تام الرجـولة، فـمال مـعـه (أي شارلمان) إلى المدارة، ودعـاه إلى المصـاهرة والسلم، فأجـابه للسلم ولم تتم المصاهرة». وقـد شعر شـارلمان أن للأوضاع الداخلية في بلاده أثر فعال فـي عدم نجاح خططه ضد إسبانيا المسلمـة، فعمد إلى توحيد بلاده تحت حكمه فبـعد وفاة أخيه كارلمان 771 م ضم الأجزاء التي كانت تحت حكمـه، واستطاع أن يحصل عـلى غفران البـابا وتأييده، وهكذا فـشلت هذه المؤامرة الدولـية التي دبرها المهـدي بالاتفـاق مع ثوار الأندلس، وشارلمان ولكن سلسلة المؤامـرات العباسيـة لم تنته وحرضوا الفـرنجة على أن يساعـدوا عبد الله البلنسي عم الحكم بن هشـام الذي ثار مع بهلول بن مروان في سرقسطة 181 هـ وقد قابل عـبد الله شارلمان في العاصـمة «أكس شايل» ولـم يترك شـارلمان هذه الفرصة تمر دون أن يـنتهزها وجـهز حملة بقـيادة ابن لويس فاسـتولى على جـيرونه، ويبـدو أن الفرنجة آثروا الرجـوع إلى بلادهم خوفًـا من تكرار مأسـاة ممر رنسغالة، بعـد أن استطاع الحكم ردهم. ومـثلما

شهدت الساحة الدولية محوراً للتآلف بين قطبي المسيحية والإسلام في بلاد الفرنجة وبغداد، شهدت محوراً آخر رداً على هذا المحور بين قطبي المسيحية والإسلام في القسطنطينية، وقرطبة فكما استمرت العلاقات السيئة بين قرطبة والدولة العباسية، استمرت كذلك بين قرطبة والأندلس، وكانت القوتان الإسلاميتان العباسية والأندلسية تمثلان فكي الكماشة تحولان أن تطبقا على الدولتين المسيحية الفرنجة وبيزنطة، وتحاول كل منهما أن تثبت أنها هي قائدة الجهاد في سبيل الإسلام، ولكن المؤسف أنهما لم تتعاونا في هذه الجهود بسبب التنافر بينهما وتضارب الأهواء. وكان السبب في قيام محور إسبانيا الإسلامية - البيزنطي هو رغبة العباسيين في إعادة الأندلس إلى حكمهم خالفًا عن سالف منذ توليهم الخلافة حتى أن «المعتصم عزم على المسير إلى أقصى المغرب، ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء وهكذا حينما تبوأ ثيوفيل عشر بيزنطة، وهو الذي عاصر الأمير عبد الرحمن الأوسط في إسبانيا الإسلامية، كان المعتصم قد اعتلى عرش الدولة الإسلامية، وقد شاطر عبد الرحمن الثاني ثيوفيل عداءه وكرهه للعباسيين، أما ثيوفيل فقد كانت وراءه عدة عوامل تدفعه لمحاولة عقد هذا التحالف مع إسبانيا الإسلامية، فهزيمته في عمورية، وتخريبها من قبل المعتصم، وتعدد هزائمه المتوالية، وخطر الأغالبة وعرب كريت، كل هذا بالإضافة إلى أن صقلية، أصبحت في طريقها لأن تصبح تابعة للأغالبة أتباع العباسيين، ويبدو أن ثيوفيل، وجد نفسه، مضطراً للبحث عن خلفاء يقوي بهم مركزه المنهار، وتصور أنه سوف يحصل على هذه المعاونة من أمراء إسبانيا الإسلامية أعداء العباسيين، وخاصة أن سفاراته إلى دول أوروبا قد فشلت في الحصول على أية مساعدة أو فائدة.

استقبلت إسبانيا الإسلامية أول سفير من ثيوفيل ويدعى «قراطيوس»، في عهد عبد الرحمن الثالث، وكان هذا السفير يجيد العربية، (في 225 هـ)، وقد حاول ثيوفيل أيضًا جذب أمير الأندلس وتحريضه على استعادة أملاك أجداده في الشام، ولم ينس أن يطالب لنفسه بجزيرة كريت التي دخلها الربضيون بقيادة أبي حفص الأندلسي، وإظهارًا لكرهه وإمعانًا في احتقاره للمأمون والمعتصم، فقد أنحى عليهما باللائمة لتصرفاتهما تجاه الأمويين والبيزنطيين على السواء. ولم يقدم ثيوفيل في هذه الرسالة أي تعهد، ولكنه ظن أن عبد الرحمن سوف يسارع إلى محاربة الأغالبة، وبذلك يكون هو المنتصر الوحيد، فهو لن يتكلف جهدًا في الحرب التي تقع بين المسلمين، ولا يهم في النهاية من الذي سينتصر، فأيًا كانت النتيجة فهي لصالحه، وقد أقام المبعوث البيزنطي عدة أيام في قرطبة، وودع بكل مظاهر العظمة والاحترام، مصحوبًا بمبعوثين من أصدقاء الأمير الأموي، وهما يحيى الغزالي وآخر اسمه يحيى أيضًا، وكلفا بإعطاء الإمبراطور جواب سيدهما، وقد استقبل الرسولان في القسطنطينية استقبالاً حافلاً، وقد برز فيهما يحيى الغزالي بدعاباته الحلوة، ودعاه الإمبراطور إلى مائدته، وعادا بعد أن بقيا مدة دون أن يعقدا أي اتفاق، وقد كان ثيوفيل يسعى فيما يبدو إلى تجديد الروابط التي كانت بين أجداد عبد الرحمن في الشام، وأسلاف ثيوفيل، وقد حاول ثيوفيل أن يصور لعبد الرحمن، أن المأمون والمعتصم، يتبعان سياسة ضالة وجائرة ضد المسلمين، وأن واجب عبد الرحمن، هو إنقاذ هؤلاء من ظلم العباسيين. وقد تخلص عبد الرحمن من أي مسئولية في هذا الصدد بكل لباقة، وهو التصرف الذي يؤكد أنه مهما قامت علاقات وروابط قوية بين أي من الجانبين المسلمين في هذا الصراع وبين آخر مسيحي، لا يمكن أن تصل إلى حد الوقوف صفًا واحدًا مع أعداء المسلمين ضد المسلمين فلا مانع من أن يهدد الفرنجة الأندلس برضا

العباسيين، ولا مانع من أن يشعر الخليفة العباسي أن بيزنطة صديقة للأندلس، ولكن أن يقف أحدهما لقتال الآخر وجهًا لوجه تحت راية الأعداء، فهذا لم يحدث في هذا الصراع الذي شهد تلك الحقبة من العصر العباسي الأول، وقد شهد عصر الرشيد بالذات فترة ركود في التعامل مع الأندلس، فقد كان للرشيد سياسته الخاصة في التعامل مع أطراف الدولة الثائرة، ونراه يؤثر أن يوجه جهوده نحو الجناح الشرقي للدولة العباسية، وأن يترك الجناح الغربي الكثير الاضطرابات تحت أتباع للدولة العباسية يتمتعون بحكم مستقل، وهو ما حدث بالنسبة للأغالبة[1]. ترتب على كل هذه الصعوبات الكثيرة نتيجة طبيعية: هي أن عبد الرحمن لم يستطع أن يكرس الكثير من مجهوده للجهاد على حدود بلاده إذ أن الفتن السياسية التي أثارها رعاياه والتي كان عليه أن يقمعها ومراقبة مثيرها، جعلته يقف موقفًا سلبيًا إزاء جيرانه من النصارى. وكان ضعفه هذا سببًا في تشجيعهم على متابعة غاراتهم على ممتلكاته شيئًا فشيئًا. وكان أشد الأخطار التي تحيق بعبد الرحمن خاصة في الجزء الأول من ولايته هو خطر اشتوريش وملكها فرويلة الأول (Fruola) (757 - 768 م) - أفظع ملوك اشتوريش حسب قول الروايات العربية - ابن الملك ألفونس الأول الذي سبق الكلام عن نشاطه العسكري والسياسي (739 - 757 م) والتوسع الإقليمي الذي أحرزه في مناطق الشمال - الغربي من أرض الجزيرة والذي مات بعد استيلاء عبد الرحمن الداخل على قرطبة بسنة واحدة (757 م). وتقول بعض الروايات (اللاتينية) أن فرويلة أحرز عدة انتصارات على جيوش قرطبة، وخاصة في منطقة كورونيا Coruna (في الزاوية الشمالية الغربية على المحيط) من غاليسيا. وربما راح آلاف من المسلمين ضحايا لهذه الوقعة - التي لا يقول عنها المؤرخون المسلمون شيئًا.

---

(1) د. نايف عبيد جابر السهيل - المرجع السابق، ص 175.

كما أنه ربما أسر أثناء الملحمة أحد أبناء عـبد الرحمن وهو الأمير الشاب عمر الذي قتل بأمر المـلك اشتوريش. ولقد قام عـبد الرحمن بهجـوم مضاد - لا تذكر الروايات اللاتينية شيئًا عنه - سنة 150 هـ (767 م) وذلك أنه سير مولاه بدرًا على رأس حملة ضد منطقة ألبة (ALAVA) وانتهت بالنجاح إذ قبل أهل المنطقة مـا فرضه القـائد الأموي عليهم من إعطـاء الجزية ودفع الرهائن. هذه المعلومـات المقتـضبة عن حـملة 150 هـ ربما اتفقت مع إحـدى الوثائق التي أوردها بعض الكتـاب العرب (نقـلاً عن الرازي أوثق مـصادر تاريخ الإمـارة الأموية). موضوع هذه الوثيقة هو الهدنة التي عقدها لمدة 5 سنوات ابتداء من صفر 142 هـ (يونية 759 م): «الأمير الأكرم الملك المعظـم» عبد الرحـمن إلى بطارقة ورهبان وبقيـة أهل قشتالة ونواحيها. ويـعدد النص الشروط التي كان على النصـارى التزامـها، وهي: دفـع عشـرة آلاف أوقيـة من الذهب سنويًا وعشرة آلاف رطل من الفـضة وعشرة آلاف حصان، ومثلهـا من البغال، هذا إلى جانب ألف درع وألف بيـضة وألف رمح من الخشب الصلب. والحقـيقة أنه من الصعب الحكم على قيمة هذه المعاهدة غير المنتظرة في هذا الوقت وربما على أصالتـها نظرًا لشروطهـا القاسيـة. كما أنه لا يمكن مـعرفة ماذا يقـصد بقشتالة في هذه الفـترة؟ هل كان يقصد بها المنطقـة الواقعة على حدود مملكة اشتوريش والتي تشبه ثغرًا دفاعيًا جنوب سلسلة جبال الكانتابر في منطقة مايه AMAYA أو كان يقصد بها مـا يشبه قشتالة القديمة، كما سـتكون فيما بعد.
أمـا عن عهـد خلفـاء فرويلة الأوله الـثلاثة وهم أورليـو (Aurelio) (768 - 774م) وسيلو SILO (774 - 383 م) ومورقـاط (Mauregato) الذي استـولى على الملك بمساعدة المسلمين (783 - 789 م)، فالظاهر أنه عهـد سلام. وما يمكن أن يقال هو أن الروايات العربية واللاتينية لا تذكر أية ملاحم بين القوات الأموية والقوات الأشتـوريشية خلال فترة العـشرين عامًا هذه. ولابد أن هذه

الفترة تتـفق مع هدنة اختيارية أو أنهـا كانت نتيجة مـباحثات بين أميـر قرطبة وملك أشتوريش في ظروف لم تعرف حتى الآن.

حملة شرلمان (161 هـ/ 778م):

هذا هو هيكل السياسة الداخلية التي وضع عبـد الرحمن أساسها، فهل كانت لعبد الرحمن سياسة خارجية واضـحة المعالم؟ نقصد بالسياسة الخارجية هنا موقـفه من العناصـر والقوى التي تقيـم خارج حدود الإمـارة الأموية في إسبانيا الإسلامية، وموقفه مثلاً من الإمارات المسيحية التي تحف بالمسلمين من الشمـال، وموقفه منهـا في الحقيقـة كانت تمليه الظروف الداخليـة التي تحدثنا عنها، فقد حالت هذه الظروف بينه وبين تسخير وقته كله للجهاد فوقف موقفًا مسالمًا من جـيرانه، وقد شجـعهم هذا على الإغارة على الحدود الإسـلامية، خصوصًـا الملك ألفونسو الأول ملك أشتـوريش الذي شجعتـه هجرات البربر نحو الجنوب وإخلائهم مناطق كثيرة في شـمال البلاد. وإذا كان ألفونسو هذا مات 757 م بعد استـيلاء عبـد الرحمن على قرطبـة بنحو سنة فقـد قام ابنه بحمـلات ناجحة على الحـدود وقتل جماعـات من المسلمين. والمؤرخ الرازي أوثق من كتب عن تاريخ الأمويـين في الأندلس يشير إلى اتفاقيـة هدنة مدتها خمس سنوات عـقدت 759 م بين «الأميـر الأكرم المعظم عبـد الرحمن وبين البطارقة والرهبان وأهل قشتـالة». ويبدو أن ملوك أشتوريش في المدة من 768 حتى 789 م لم يقومـوا بأعمـال عدائيـة ضد إسبـانيا الإسـلاميـة. والمصادر اللاتينية والعربية لا تتحدث عن اشتباك بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة التي استـمرت 21 سنة الأمر الذي يدل على اتفـاق بين هذه المملكة المسيحـية وبين الإمارة الأموية. أما عن موقف الفرنجـة من الإمارة الأموية في عهد عبد الرحمن فيبدو أنهم لم يقنعوا بالاستيلاء على منطقة سبتمانيا ومدينة نربونة إنما أرادوا أن تمتد غاراتهم إلى بلاد الأندلس ذاتها.

يظهر هذا واضحًا من حملة شرلمان المعروفة التي تقدمت لغزو البلاد عام 778 م، (أي قبل وفاة الأمير بعشر سنوات). ويرجع السبب في هذا التدخل الفرنجي إلى أن بعض جماعات العرب الذين كانوا قد استقروا في أقصى الشمال الغربي في حوض نهر الأيبرو الذي يسمى في المصطلح الإسلامي «الثغر الأعلى» ساءهم قيام الدولة الأموية ومحاولة عبد الرحمن إخضاع أهل البلاد جميعها لسلطانه فبدأوا بالثورة عليه في سرقسطة. ولما أحسوا أنه سار إليهم لم يترددوا في الاستنجاد بأعداء المسلمين فذهب وفد منهم ليقابل شرلمان في ألمانيا وزينوا له دخول الأندلس والاستيلاء على الثغر الأعلى (حاسبين أن هذا الاستنجاد لا يزيد على ما كانوا يفعلونه هم في البادية من استنجادهم بفريق على فريق). وقد أقبل شرلمان ودخل شبه الجزيرة متجهًا نحو سرقسطة وحاصرها بالفعل ولكن أهلها من السملين تنبهوا فجأة إلى خطورة فعلة رؤسائهم ورفضوا فتح الأبواب واشتد الحصار، ولولا أن ظروفًا خارجية اضطرت شرلمان إلى الانسحاب من الأندلس قبل الاستيلاء على سرقسطة لأصبح مصير الثغر الأعلى في كفة الميزان. (ذلك أن الزعيم الجرماني فيدوكند عاد إلى الثورة في سكسونيا) فاضطر شرلمان إلى أن ينسحب، فنجت البلاد من الخطر وفي أثناء انسحاب شرلمان مسرعًا اخترقت قطع جيشه الممرات الغربية لجبال البرانس، وهي المعروفة بممرات رونشفال واتسعت المسافات بين أجزاء الجيش وتأخرت المؤخرة فهاجمتها من شعاب الجبال الباسك فقضت عليها وقتلت قائدها رولاند فنشأت عن ذلك الملحمة المعروفة في الأدب العالمي باسم ملحمة رولاند. (وكانت هذه الحملة الشرلمانية أكبر خطر تهدد دولة عبد الرحمن ونجت منها البلاد لظروف خارجة عن إرادتها).

ظهر العداء واضحًا بين العباسيين وبين الإمارة الأموية في الأندلس، وحاول العباسيون مرارًا أن يتدخلوا في البلاد ويستعدونها لسلطانهم فلم يوقفوا، وقد اضطر هذا العداء العنيف العباسيين فيما بعد إلى محالفة شرلمان عدو المسلمين ومراسلته كيدا في الأمويين وتهديدًا لكيانهم. ولم يكن اهتمام عبد الرحمن شديدًا بما يجري عبر المضيق من تطورات فقد كانت شئون البلاد تشغل عليه وقته ولا تدع له مجالاً للتطلع إلى بلاد المغرب[1]. يمكن اعتبار هذه الحملة كرد الفعل الذي وجهه الفرنج بالأرض الكبيرة ضد الحملات التي كان يقوم بها العرب فيما وراء البرانس والتي نتذكر منها حملة عبد الرحمن الغافقي التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة بلاط الشهداء سنة 114 هـ التي تسمى في التاريخ الأوروبي بموقعة بواتييه أوتور وبطلها شارل مارتل. عن هذه الحملة بقي الجزء الأخير منها، وهو الخاص بكارثة الرونسفو التي لحقت بجيش شرلمان، ماثلاً في الأذهان إذ خلدته أنشودة العصور الوسطى الشهيرة المسماة بأنشودة رولان التي أُلفت في القرن الحادي عشر الميلادي. ومما يدعو إلى الأسف أن المعلومات التي نملكها عن الظروف التي تم فيها إبادة ساقة (مؤخرة) الجيش الفرنجي وعن طريق الذهاب للحملة وطريق العودة في وادي الإبرة أو عن الدوافع الحقيقية التي دفعت شرلمان إلى القيام بها إن هي إلا معلومات ضئيلة. وهنا نجد أن المصادر الفرنجية نفسها ليست بأكثر دقة أو معلومات من المصادر العربية. وعلى ذلك فمن الطبيعي أن تكون النتائج التي يصل إليها الباحثون ليست واحدة.

نبدأ بالكلام عن طبيعة الإقليم الذي تمت فيه هذه الحوادث إذ أن جغرافية المنطقة كانت من العوامل الحاسمة في سير هذه الحوادث. فالمنطقة

---

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 94.

الفاصلة بين شبه جزيرة إيبريا وفرنسا وهي منطقة جبال البرانس الوعرة التي تتخللها مضايق صعبة. ومدينة سرقسطة على نهر الإبرة هي مركز منطقة خصبة غنية قريبة من الجهات التي تسكنها قبائل الباسك ثم الحاميات الفرنجية في سبتمانيا وهي بذلك مدينة غنية ومركز عسكري ممتاز. وهي أيضًا مثل برشلونة وإلى حد ما مثل بلنسية، ببعدها عن قرطبة، تسمح لمن يحكمها أن يكون شبه مستقل عن الحكومة المركزية. ومنذ بداية الغزوة العربية استقبل وادي الإبرة أعدادًا كبيرة من العرب وبدأ الإسلام ينتشر هناك، والظاهر أن ولاة سرقسطة أحسوا ببعدهم هذا عن العاصمة وأنهم يتمتعون بحرية العمل بعيدًا عن سيطرة الحكومة المركزية بقرطبة فأظهروا ذلك كلما سنحت لهم الفرص. ولم يكن من الصعب أن نجد - من بين هؤلاء الولاة المغامرين الذين لم يكونوا يعملون إلا لمصلحتهم الشخصية دون مراعاة لمصلحة الدولة الإسلامية أو حركة الإسلام - من كان يرى أن أطماعه الأنانية ربما تحققت عن طريق التلويح لشرلمان بمزايا فتح إسبانيا الشمالية وسهولة ذلك. هذا ولو أن فكرة فتح شمال إسبانيا كان يعتبر صحيحًا من الناحية العسكرية، وذلك لتأمين حدود مملكته الجنوبية ضمن غارات المسلمين، ولو أن خطرهم الجدي كان قد زال منذ منتصف القرن الثامن الميلادي، وذلك باستيلاء ببان القصير والد شرلمان على مدينة أربونة، كما أن المصادر التي تلت موت ببان 768 م لا تذكر أي نشاط عدائي بين المسلمين والفرنج من أي جهة من جهات البرانس الشرقية، كما أن شارل كان لديه عقب موت والده من المشاكل ما يشغله عن الاهتمام بتأمين ممتلكاته المتاخمة لإسبانيا.

إلا أنه بعد أن يقوم بفتوحاته في لومبارديا وساكس وبافاريا وبلاد الآفار حتى الدانوب التي ضمها إلى إمبراطوريته، بدأ يحيط هذه الإمبراطورية بعدد من الثغور لتأمينها ضد أعدائها في هذا الحين كان يمكنه التفكير في ضم

إسبانيا القوطية إلى دولته وطرد المسلمين منها، ولو تم له هذا لكان انتصاراً سياسيًا ودينيًا في نفس الوقت. ومن المرجح أنه فكر في هذا المشروع إلا أن تصرفه بعد الفشل الذي صادفه يظهر لنا أنه عدل سريعًا عن تحقيق هذا الهدف. والمقري يحفظ فصلاً غريبًا ربما اقتبسه عن ابن حيان وفيه يقول: «وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تحرش به مدة فأصابه صلب المكر تام الرجولية فمال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة. ويمكن الشك في أصالة النص ولكن ليس من المعقول أن يكون مصنوعًا كله. والحقيقة أنه ليس من الصعب أن نتصور تصاهر العائلة الكارولنجية وأسرة الأمويين بقرطبة، أما عن الهدنة فهي تتفق مع الحقيقة التاريخية، إذ أن حملة 778 م لم تتبعها حملات أخرى فيما وراء البرانس حتى أخذ برشلونة 801 وتكوين ما يسمى بالثغر الإسباني (Marca Hispanica) ما بين نربونة وبرشلونة. ويمكن الاعتراض على هذه الملاحظة بأنه بعد ذلك بقليل (في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي) عقد شرلمان أواصر الصداقة مع هارون الرشيد لكي يضايق الأمويين بالأندلس، ولكن هذا غير موثوق به تمامًا، فالمصادر العربية تقول أن شارلمان لم يأنف من مفاوضة الحكم الأول حفيد عبد الرحمن بينما نرى المصادر الإفرنجية لقلب الأوضاع. وقبل أن نتكلم عن الحملة نفسها يحسن أن نقول كلمة عن الظروف التي تمت فيها المفاوضات بين شارلمان والأمير العربي الذي استدعاه. هذا الرجل هو سليمان بن يقظان بن العربي (أو ابن الأعرابي حسب رواية أخبار مجموعة) من قبيلة كلب. ولقد ولي سرقسطة في ظروف غامضة وكان قبل ذلك بقليل (160 إلى 161 هـ 776 أو 777) قد عمل مع أحد المشاغبين الذين حضروا من إفريقية إلى الأندلس، هذا الأخير هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي (السقلابي في أخبار مجموعة وسمي بذلك لطوله وزرقته

وشقرته. وكـان الخليفة العبـاسي محمد الهادي قـد أرسله للقيام بمهمـة أشبه بالمهمـة التي كلف أبو جعفـر المنصور 146 هـ (763 م) العلاء بن مـغيث أي القيـام بتكوين حزب مناصر للعـباسيين والعمـل على قلب النظام الأموي في شبـه الجزيرة بمسـاعدة الذين يعـطفون على الحـركة ولا سيـما البـربر. نزل الصقلبي بسـاحل تدمير (مرسـية) وكاتب ابن العربي الذي كـان ببرشلونة في ذلك الحين. ولكن عندمـا أظهر الصـقلبي أنه يدعـو لبني العبـاس رفض ابن العربي أن يجيبـه أو أن يربط مصيره بمصيره. وانتهى الأمـر بينهما إلى الحرب فهزمه سليمان واضطر عبد الرحمن بن حبيب إلى الهجوم على جهات بلنسية حيث اتبعه جيش أموي على رأسه عبد الرحمن وأحرق سفنه فقصد الصقلبي جبلاً هناك فـبذل الأموي ألف دينار لما أتاه برأسه فنزع إلـى الفهري رجل من البربر فاغتاله 163 هـ/ 778 - 779 م. هنا يلاحظ الأستاذ ليفي بروفنسال أن المصادر العربية متفقة بالنسبـة لما قام به عبد الرحمن الصقلبي في المدة القصيرة التي وجد بهـا بالأندلس من أجل تنفيـذ المهمة التي أراد بهـا لحساب الخليـفة ببغداد، ولكن دوزي يقول (المصادر غيـر معروفة) أن هذا الشخص ذهب في 777 م إلى مقابلة شرلمان ومعـه سليمان بن يقظان بن العربي وأبو الأسود في يوسف الفـهري الذي كان قـد سجنه عـبد الرحـمن الداخل والذي تمكن من الهرب بعد أن تظاهر بالعمى مدة طـويلة حتى خفت الحراسة عنه، وأن هؤلاء المغامـرين الثلاثة اقتـرحوا على شارلمان تحـالفًا هجومـيًا ضد أمـير الأندلس. ولكن الحقيـقة مخالفـة تمامًا كما تعرضـها المصادر الموثوق بها كـرواية «أخبار مجـموعة» المقتـضبة ورواية ابن الأثيـر رغم تواريخه الخاطئـة التي ينقلها عن مصدر إسباني.

من هذه المصادر يتـضح أن ابن العربي عـاد إلى سرقسطـة بعد أن قطع علاقته بالداعية العباسي وهناك ثـار ومعه أحد المغامرين العرب، وهو الحسين

ابن يحيى الأنصاري ضد أمير قرطبــة، ولكن هذا أرسل جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي فـحاصر المدينة وضيق عليها ولكن ثعلبة سيؤخـذ أسيرًا ويتفرق جيشه بعد أيام من الحصار، وذلك بعد هجوم مفاجئ من حمامية المدينة. هذا الأسير سـيفتح آفاقًا جـديدة أمام ابن العربي الذي سيتـرك المدينة إلى شريكه الحسين بن يحـيى قائمًا برحلة طويـلة إلى ساكس لمقابلة قـارله (شارل) الذي كان مـوجودًا هناك قـفي مدينة بادربورن وهناك سلم أسـيره ثعلبـة إلى شارل طالبًا منه أن يقوم بحملة ضد شمـال إسبانيا. وهناك احتمال في أن يكون ابن العربي قد وصل إلى بادربورن في صحـبة أمير عربي آخر مسـتقل اسمه «أبو ثور» الذي كـان يملك وشقـه ذلك مـا يمكن استـخـلاصه من بعض المصـادر الإفرنجيـة التي تقول أنه في 778 م وصلت إلى الملك الفرنجي رهائن من أبي ثور أمير وشقه ومن ابن العربي أمير برشلونة وجرندة. في هذه الظروف يسير شرلمان على رأس جيوشه في ربيع 778 م في طريقه إلى البرانس التي يعبرها عند برت شيـزروا (الإدريسي) ثم يتجـه إلى بنبلونة ويتقـبل خضـوع الباسك (البشقنسي) بها. ومن هناك وعن طريق وشقـة يتجه إلى سرقسطة التي وعده ابن العربي بفـتح أبوابها له. ولكن الحسين بن يحـيى الذي كن يحكم المدينة ذلك الوقت، كما رأينـا، والذي طاب له أن يظل حاكمًا عليهـا لم يعد ينظر إلى المسألة كما نظر لها ابن العربي، فيغلق أبواب المدينة، ويضطر شارلمان إلى ضرب الحصار عليها ولكن قاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع. وطال الحصار على غيـر ما يشتهي الإفـرنج ولكن ابن العربي يُطمئن شـارلمان على أمل أن تفتح المدينة أبوابها عندمـا يشتد عليـها الحصـار. في هذا الوقت وردت إلى شارل أنباء سيـئة من ألمانيا: فالثـورة قامت في ساكس، وكان ذلك كـافيًا لأن يرفع الحصـار عائدًا بالجيش إلى بلاده، ورجع الجيش الإفـرنجي عن طريق بنبلونة، وانتقم من أهلها وحطم أسوارها. ولم يكن أمام ابن العربي إلا الانسحاب مع

جيش شارلمان الذي احتفظ به أسيرًا وجعله مسئولاً عن الفشل أمام سرقسطة. ولكن في نفس اليوم الذي خرج فيه الجيش من بنبلونة أو في اليوم التالي هوجم في الرونسفو. ويتكلم المؤرخ أجينار في تاريخه عن حياة شارلمان عن هذا الحادث فيقول: «لما كان جيشه سائرًا في صفوف طويلة إذ أن طبيعة الشعاب تتطلب ذلك قام الباسك الذين كانوا يكمنون - إذ أن الغابات الكثيفة في هذا المكان تساعد على عمل الكمائن - بالانقضاض من أعالي الجبال ملقين في الأودية بجموع مؤخرة الجيش التي كانت تغطي مسيرته وهاجموها بعنف حتى قضوا على كل الرحال، واستولوا على الأثقال، ثم انتشروا بسرعة غريبة عندما حل الليل. وساعد الباسك خفة تسلحهم ثم صعوبة الأرض، بينما كان الفرنج مُجهدين بأسلحتهم الثقيلة ثم بموقفهم الصعب في بطون الأودية. في هذا القتال هلك عدد من كبار رجال شارلمان منهم: صاحب طعام القصر (أجيهار) ومحافظ القصر أنسلم ثم رولاند صاحب ثغر بريطانيا وكثير غيرهم. هذه الهزيمة لم يثأر لها في الحال إذ أن الأعداء تفرقوا بعد أن ارتكبوا فعلتهم، ولم يعلم إلى أي مكان ذهبوا. تلك هي القصة التقليدية كما يوردها أجينار، وهي تهدف إلى التقليل من الهزيمة على قدر الإمكان. ومؤلف حياة شارلمان هو المصدر الوحيد الذي يذكر أسماء الكبراء الثلاثة الذين قتلوا إلا أنه لم يذكر مكان الواقعة. والمصادر الفرنجية تحدد أن الذين قاموا بالهجوم على الجيش الفرنجي هم قبائل الباسك إلا أنه من المحتمل أن يكون قد انضم إلى هؤلاء جماعات من المسلمين. تلك الجماعات لم تكن تهدف إلى سلب جيش شارلمان فقط، بل وتحرير ابن العربي أيضًا. وهناك إشارة في ابن الأثير تبعث على الظن أن ابنين من أبناء ابن العربي هما مطروح وعيشون اشتركا في هجوم الرونسفو وأنهما أنقذا أباهما وعادا به إلى سرقسطة. وفي ذلك يقول (ابن الأثير جـ 6 ص 5): وفيهما (164 هـ) أخرج

سليمان بن يقظان الكلبي قارله ملك الإفرنج إلى بلاد المسلمين من الأندلس ولقبه بالطريق وسار معه إلى سرقسطة، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وامتنع بها، فاتهم قارله ملك الإفرنج سليمان فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده. فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مطروح وعيشون أبناء سليمان في أصحابهما فاستنقذوا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة، ودخلوا مع الحسين ووافقوا على خلاف عبد الرحمن.

وظلت المدينة عدة سنوات على موقفها المعادي لعبد الرحمن الأموي قبل أن تخضع، وذلك أن قائد عبد الرحمن الداخل وهو ثعلبة بن عبيد الذي سلمه ابن العربي إلى شارلمان استرجع حريته بعد مفاوضات بين أمير قرطبة وملك الفرنج. وربما كانت هذه بداية المفاوضات التي سبق الإشارة إليها حسب رواية نفح الطيب، والتي تنسب إلى ابن حيان. أما ابن العربي فإنه بعد قليل: قتله حليفه السابق الحسين بن يحيى الأنصاري الذي تغلب بعده في سرقسطة والذي سيضطر تحت ضغط حصار عبد الرحمن الداخل 164 هـ/ 781 م إلى الخضوع ومن المحتمل أن يكون الأموي قد انتهز فرصة وجوده في أراجون لكي يقوم بغارة في اتجاه البرانس الشرقية والروسيون، وربما وصل إلى قلهره، ولو أن أسماء المدن حسب ما توردها الروايات العربية مشوه للغاية ومن المتعذر التحقق منها. وعلى ذلك فربما كان مقصد عبد الرحمن هو منطقة سرداني وجهات بمبلونة. وعلى أية حال لم يكن خضوع سرقسطة إلا خضوعًا عابرًا فالحسين بن يحيى، رفع راية العصيان بعد عدة أشهر. وفي صيف 166 هـ/ 782 م أتى أحد قواد عبد الرحمن لمحاصرة المدينة ولم يلبث الأمير أن أتى بنفسه فضيق عليها الخناق ونصب حولها المنجنيقات فاضطرت إلى التسليم فأخذ الحسين وقطع يديه ورجليه قبل أن يقتله، كما طرد أهل المدينة منها لمدة

معينة ثم أعادهم. وتدل الظواهر على أن فشل شارلمان 778 م بسبب له مرارة شديدة، كما علمه أن تحالفه مع بعض الأمراء المسلمين بشمال إسبانيا لم يكن يستند إلى أساس متين، وأنه ينبغي أن يترك جانبًا فكرة الاستيلاء على المدن التي كان يطمع في أخذها فيما وراء البرانس. فلم يعد همه هو محاربة المسلمين في شمال الجزيرة إنما الدفاع عن إمبراطوريته على طول جبال البرانس. ولهذا السبب قام في نفس السنة بتكوين مملكة قطانيا داخل إمبراطوريته لغرض مراقبة نشاط أمراء المسلمين هناك ومحاولة رد هجماتهم إذا ما فكروا في ذلك. هذه المملكة الجديدة التي كانت تعادل مناطق بورج وبورد وأوك ونربونة أعطاها شارل لابنه لويس التقي الذي سيباركه البابا كملك لهذه المملكة 781م. ومن هذه المملكة التي ستعيش حتى 986 م ستقف ولايتا جاسكوني وسبتجانيا موقفًا حازمًا إزاء المسلمين. ولكن كما حدث في شمال شبه الجزيرة الغربي لن تكون هناك حدود دقيقة واضحة بين الممتلكات المسيحية والممتلكات الإسلامية. ففي نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين نجد بين نهر الإبرة، وجبال البرانس مانعة بين الفرنج والمسلمين فهي متبادلة بينهم حسب الظروف. في هذه المنطقة المتنازع عليها بين الطرفين سيلاقي عبد الرحمن الداخل هزيمة قبل موته بثلاث سنوات، ولن يستطيع أن يجد لها حلاً. وذلك أن أهل جرندة سيسلمون مدينتهم إلى ممثلي السلطة الفرنجية 785 م. والمؤرخون العرب لا يقولون شيئًا عن هذا الحادث ولكن هناك رواية محلية ترجع الفضل في هذا - وذلك أمر غير محتمل - إلى شارلمان. وهذا الجيب الفرنجي في داخل الأراضي الإسلامية كان ينذر بسقوط منطقة برشلونة كلها على أيدي الإفرنج وتكوين الثغر الإسباني (Marea hispanica)، كما سيحدث فيما بعد[1].

---

(1) د. سعد عبد الحميد - المرجع السابق ص 205.

السياسة الخارجية لخلفاء عبد الرحمن:

رأينا كيف كان انشغال عبد الرحمن الأول بتوطيد دعائم الإمارة والقضاء على المعارضين لسياسته دفعه إلى مسلك معين في علاقته بالإمارات المسيحية في شمال البلاد أو مملكة الفرنجة، دفعته إلى مهادنة هذه القوى بقدر ما يستطيع حتى تتحقق أغراضه وتنجح سياسته في الداخل. ونستطيع في الحقيقة أن نضع مبدأ يساعدنا على فهم هذه العلاقات الخارجية إذ يلاحظ أن هذه العلاقات الخارجية مرتبطة بالأحوال الداخلية في البلاد أشد الارتباط، التوسع العربي يقترن بالوحدة القومية، كلما تمت هذه الوحدة تحقق التوسع ونجح، كما أن الانصراف إلى الجهاد يرتبط باستتباب الأحوال الداخلية في إسبانيا الإسلامية على الخصوص. على هذا الأساس سنجد أن العلاقات الخارجية في الفترة الأولى من تاريخ الإمارة التي شملت عهد هشام والحكم وعبد الرحمن الثاني تختلف عنها في الفترة الثانية فترة الأمراء الضعاف وتفرق الوحدة القومية. وقد رأينا العهد الأول أمينًا على تراث عبد الرحمن، حقق الوحدة القومية وجابه المشاكل الداخلية بشجاعة والتمس لها الحلول، لذا كان العهد الأول هو عهد الدعوة إلى الجهاد ومعاودة الجهود التي توقفت بانقضاء عصر الغافقي وأمثاله، وسنرى كيف كانت سياسة الجهاد هذه في العهد الأول من تاريخ الإمارة، عهد هشام والحكم وعبد الرحمن. فما كاد هشام تستقيم له الأمور وتنعم البلاد في عهده بالهدوء والطمأنينة حتى بدأت القوات الأندلسية تعود إلى سياسة الجهاد، وبدأت سلسلة من الاعتداءات على الإمارات الشمالية خصوصًا إمارات أشتوريش، والمؤرخون العرب يتحدثون عن الصوائف التي أرسلت إلى الأطراف الشمالية الغربية في شبه الجزيرة في 785 م، أرسلت صائفة بقيادة عبيد الله بن عثمان توغلت في وادي الأبيرو وهزمت القوات الإسبانية هزيمة كبرى، كما استطاع جيش آخر في نفس هذه

السنة أن يلتقي بقـوات الملك برمودة الأول وأن يهزمهـا. ولم يكف المسلمون في عهد هشام عن متابعة هذه الحملات على مناطق الحدود بقيادة أعلام القواد والحجاب، فقـد عادوا إلى الهجوم في 792 م و 794 م. وأحرز الأمويون في آخر عهد هشام انتصارات ذات شأن لم يشهدها عهد عبد الرحمن الأول؛ فقد هزمت قوات ألفونسـو الثاني وتقهقرت صوب الشـمال تتعقبهـا قوات العرب إلى جبال أشـتوريش. وقد بدأت الإمارة الأموية فـي عهدها الأول هذا تقف من مملكة الفرنجـة موقفًا يختلف تمامًـا عما رأيناه من قبل. لم تكتف بسـياسة الدفاع إنما عـاودت الهجوم وبدأت قـوات هشام تغيـر على منطقة سـبتمـانيا ومدية. وكان الفـرنجة قد استولوا قـبل وفاة عبد الرحـمن الأول، والحوليات العربيـة تتحدث عن هزيمة الحـامية الفـرنجية وعن هدم الأسـوار. وقد واصل القادة العرب الإغارة حـتى بلغوا نربونة نفسها بل توغلوا فيها منـتهزين فرصة انشغال شرلمان وابنه لويس في إيطاليا، وقد هزمت قوات الفرنجة للمرة الأولى منذ أيام شارل مارتل، وعاد المسلمون إلى قـرطبة محملين بالغنائم والأسلاب حتى قيل إن الأمير هشام كان نصيـبه من أسرى هذه المعركة وحدها نحواً من 45 ألفًا. وفي عـهد الحكم الأول شغل المسلمون بالـفتن الداخلية التي رأيناها في قرطبـة وطليلطة وغيرها من مـتابعة جهـود هشام الأولى، وقد استـفادت الإمارات المسيحيـة من هذه الظروف وعاودت من جديد الهجوم في الأطراف الشمالية والشرقية والغربية.

لـم ينصرف الأمويون عن الغزو تمامًا وإنما لم يتـابعوا الجهاد بنفس القوة والإلحاح الذي رأيناه، أرسـلت صوائف في 803 م، وفي 808 م، ولكنها لم تكن بالصورة التي رأيناها في عهد الأمير السابق. على كل حال ما كاد الحكم يفرغ من مشاكله الداخلية تمامًا 816 م حتى استأنف الجهاد على النطاق الواسع المعهـود وأعدت حملة تذكرنا بحـملة نربونة في عهد هشـام، قد أعد جيـشًا

كبيرًا بقيادة الحاجب عبد الكريم بن مغيث وبعث به إلى أشتوريش، وتوغلت هذه القوات حتى حدود قشتالة والتقت بقوات ألفونسو الثاني فهزمت هزيمة كبرى وتكبدت خسائر كبيرة في الأرواح. فكان هذا النصر من أهم الأعمال الجديدة التي شهدتها معركة الجهاد في عهد الحكم ويبدو أنه كان من القوة بحيث كفت الإمارات المسيحية عن الحركة من بعده تمامًا فلم تعاود الظهور طيلة العشر سنوات التي بقيت من حكم الأمير الحكم. وتجدد الصراع بين العرب والفرنجة في عصر الحكم، إذ يبدو أن الإمبراطور شرلمان لم ينس ما ناله عند سرقسطة بالأمس، وكان ينتهز فرصة مواتية بعد فراغه من مشروعاته في إيطاليا، كان يترقب فرصة انقسام في الجبهة الإسلامية في إسبانيا ليتدخل تدخلاً ناجحًا. وقد صدق ظنه. ذلك أن الأمير الثائر عبد الله بن عبد الرحمن رحل إليه في أكس لا شابل يستحثه على التقدم ويعده بالمساعدة، أعد شرلمان حملته المشهورة على مدينة برشلونة، وانتهت بضياع هذه المدينة وسقوطها في يد الفرنج، وقد اتخذوا منها قاعدة أمامية للتوغل في أراضي الأمويين وأتيحت لهم الفرصة لأن ينظموا منطقة الثغور الإسبانية فيما وراء البرانس. وظلت العلاقات بين الأمويين والفرنجة على هذا النحو السيء حتى عقدت الهدنة 807 ميلادية وظلت سارية حتى وفاة شرلمان. وقد استأنف الحكم عملياته العسكرية بعد وفاة شرلمان فهاجم منطقة الحدود الفرنجية وحاول استرداد برشلونة دون جدوى. وقد أصبحت عملية متابعة هذا النضال أمانة في عنق الأمراء بعد الحكم الأول وكان عبد الرحمن الثاني أمينًا على هذا التراث فلم يتخل عن واجبه. وما كاد يتولى الحكم حتى بدأت قواته تهاجم مملكة أشتوريش ووجهت الحملات إلى برشلونة ومنطقة الثغور الفرنجية. وإذا كانت العمليات العسكرية قد توقفت نحوًا من عشر سنوات (828 - 838 م) إلا أن الجهاد استؤنف مرة أخرى في المناطق الشمالية الشرقية والشمالية الغربية

وظل الجهاد متتابعًا طوال حكم هذا الأمير، وعاود الحاجب عبد الكريم بن مغيث قيادة الصوائف وهزمت قوات أشتوريش هزيمة كبرى 825 م حتى لقد أطلق المؤرخون الأندلسيون على هذه الغزوة اسم غزاة النصر. ولم يكتف عبد الرحمن بهذا النصر الذي أحرزه بل هوجمت غاليسيا، ووصلت القوات الإسلامية حتى أسوار قشتالة. وكان عبد الرحمن في بعض الأحيان يقود الجيوش بنفسه كما حدث عام 840 م عندما هاجم منطقة غاليسيا. لم تتوقف الصوائف أبدًا في عهده بل ظل يتابعها حتى وفاته.

شهد عصر عبد الرحمن ظهور خطر جديد هو الخطر النورماندي، فقد ظهر هؤلاء النورمان أو الشماليون المنحدرون من شبه جزيرة أسكندناوة في منتصف القرن التاسع الميلادي وهددوا شواطئ الأندلس كلها ومدنها الساحلية الزاهرة يحملون في طريقهم الدمار والخراب بنفس الصورة التي عرف بها المغول في التاريخ. وقد أوقع هؤلاء الناس الرعب في قلوب الأندلسيين كافة وأهل إشبيلية خاصة وتركوا أثرًا كبيرًا في حياة إسبانيا الإسلامية وفي الأدب ظل باقيًا بعد انقضاء غاراتهم بسنين طويلة. وقد سجل هذه المأساة بعض مؤرخي إسبانيا الإسلامية المعاصرين خصوصًا المؤرخ ابن حيان وقد وصفهم بالشماليين أحيانًا أو بالمجوس. ويبدو أن الخطر لم يكن قاصرًا على سواحل أيبريا وحدها، وفي 844 م هاجم النورمان سواحل فرنسا المطلة على المحيط الأطلنطي واستولوا على نانت ومصب اللوار ووصلت غاراتهم إلى بورد وطولون. ثم بدأوا يهاجمون السواحل العربية في هذه السنة فهاجموا لشبونة وحاربوا أهلها ثم انسحبوا نحو الجنوب حتى بلغت بهم غاراتهم مدينة إشبيلية وهاجموا المدينة نفسها. وقد فر عنها سكانها وأعملوا فيها السلب والنهب، وقد نشرت غاراتهم المدمرة الرعب في إسبانيا كلها. وقد دعا عبد الرحمن الثاني إلى التجنيد العام وجمعت المقاتلة والفرسان والتحموا بالنورمان وأوقعوا

بهم خسائر فادحة واستردت المدينة. ويبدو أن عنف هذه الغارات دفع عبد الرحمن إلى استصراخ القوى الإسلامية جميعها فراسل الأدارسة والرستميين. وظلت البلاد تتعرض لغزواتهم حتى 859 م، ولم يخلص البلاد منهم إلا ظهور الأسطول الأموي الجديد الذي اكتسب الخبرة والمهارة خلال هذه المعارك الدموية وبدأت قوته تظهر في حوض البحر الأبيض المتوسط[1]. تأكد الاستقلال الأموي في عهد عبد الرحمن الأوسط وتوطدت دعائمه فخابت آمال العباسيين في إخضاع إسبانيا الإسلامية، بل بدأ النفوذ العباسي يتضاءل في المغرب الإسلامي كله خصوصًا بعد ظهور الأدارسة والأغالبة والرستميين وانشغال مصر بثورات الأقباط على النفوذ العباسي. بل بدأت الخلافة العباسية تشغل بالفتن والأزمات الداخلية الناجمة عن استخدام الترك وظهورهم في سامراء في عصر المعتصم، وانتشر نداء الاستقلال في العالم الإسلامي كله حتى في إيران نفسها بظهور الطاهريين.

نريد أن نعني (بصفة خاصة) بصلات عبد الرحمن بهذه الإمارات التي ظهرت في الغرب الإسلامي والتي سنعرض لها فيما بعد. ويبدو مما كتبه المؤرخون أن علاقات الأمويين بهذه القوى كانت غاية في الفتور وإن كان هذا لا يمنع من التبادل التجاري أو الثقافي. وموقف الأغالبة من الأمويين ليس في حاجة إلى تفسير فقد كان الأغالبة صنائع العباسيين وأصدقائهم، ولم يكن من المعقول أن يمدوا أيديهم إلى بقايا الأمويين في إسبانيا الإسلامية. على كل حال كانت المسافة بعيدة بين ديار الأغالبة وبين إسبانيا الإسلامية.

ومما يؤسف له أن القوتين البحريتين إسبانيا الإسلامية والأغالبة لم تتعاونا في سبيل بناء صرح سيادة إسلامية بحرية موحدة، إذ لو تم ذلك لتغير

---

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 107.

مصير الغرب الإسلامي كله. وكانت كل من الإمارتين تبذل نشاطًا بحريًا عظيم الشأن، ولكنهما لم تتعاونا في الميدان البحري، فالأغالبة مثلاً فتحوا صقلية في 837 وهاجموا جنوب إيطاليا وفتحوا آفاقًا جديدة للحضارة الإسلامية. ووصلت بحرية إسبانيا الإسلامية إلى القمة في عصر عبد الرحمن. وإذا كانت بحرية إسبانيا الإسلامية الرسمية لم تشأ أن تتعاون في هذا الميدان فإن القراصنة الإسبان شعروا بأهمية وحدة الجهود وشاركوا الأغالبة كفاحهم في صقلية وشاركوا مشاركة فعالة في فتح مدينة بالرمو. وقد ظهر القراصنة المسلمون في حوض البحر المتوسط، وظلوا يلعبون دورًا هامًا في هذا الجزء من البحر طوال العصور الوسطى. لكن يبدو أن ثمة علاقات وطيدة نوعًا ما نشأت بين الأمويين وبين الرستميين في الجزائر وتبودلت السفارات واستقبل الأمراء الخوارج في قرطبة استقبالاً حافلاً.

يبدو أن الخوارج كانوا في حاجة إلى تأييد إسبانيا الإسلامية لمواجهة ضغط الأغالبة والأدارسة. على كل حال لم تنقطع العلاقات الطيبة بين البلدين طوال عصر الإمارة. ولم تقم بين الأمويين وبين الأدارسة مودة رغم الاتصال الوثيق بين المغرب الأقصى وإسبانيا الإسلامية، وذلك بسبب الخلاف التقليدي بين الأمويين والهاشميين. وكانت للأمويين سياسة ثابتة في المغرب الأقصى تقضي بتشجيع الإمارات الصغيرة التي في المنطقة الساحلية لتستطيع الصمود في وجه الأدارسة مثل إمارة بني صالح أو إمارة برغوطة وإمارة سجلماسة على أطراف الصحراء. وقد أفاد الأمويون من الانقسام الذي وقع في صفوف الأدارسة بعد وفاة إدريس الثاني. وكان الأمويون دائمًا يشجعون الفرع الحمودي من هذه الأسرة (وسنرى أن هذه السياسة كانت تمهيدًا للتدخل الأندلسي المباشر في شئون المغرب الأقصى في عصر الخلافة). وتبودلت العلاقات الدبلوماسية مع القوى العالمية المعاصرة مع الدولة البيزنطية في عهد

الإمبراطور ثيوفل، إذ يتحدث ابن حيـان مؤرخ الأمويين عن بعثة بيزنطية إلى بلاط بني أمية وعن بعثة إسبانيا الإســلامية إلى القسطنطينية. رأينا كيف كانت الوحدة القومية هي سياج إسبانيا الإسلامية في الفترة الأولى من تاريخ الإمارة وكيف رفعت الوحدة القومية كلمة الأمويين ليس في إسبانيا الإسلامية فحسب بل في العالم كله، وأصـبحت دولة يخطب ودها المعـاصرون ويحسبـون لها ألف حساب. وكان انتشار الوحدة القـومية في فترة الضعف من تاريخ الإمارة مصدرًا ليس للفتن الداخلية التي اجتـاحت البلاد وظهور الإمارات المستقلة بل مبررًا لمطامع القوى المسيحية المتربصة بإسبانيا الإسلامية سواء في شمال الجزيرة أو عبر البرانس في بلاد الفرنجة. فقد عاود النورمان غاراتهم المدمرة بين 858م و861 م، وامتد عدوانهم حتى المغرب الأقصى وانتهزت أشتوريش الفرصة في عهد ملكها أردينو الأول للتطلع صوب الجنوب ووصل هذا العدوان إلى القمة في عهد الملك ألفونسو الثالث والفتن الداخلية في البلاد أشد اشتعالاً وأوغلت قواته في أرض الأمـويين دون عائق[1]. لم تكن سـياسـته الخارجـية حـافلة بالأحداث الجـسام، اللهم إلا غارات الدانماركيـين الذين وجههم إلى إسبـانيا الإسلاميـة ريتشارد الأول دوق نرمنديا ليتخلـص من عدوانهم وشرهم. وفي مواجـهة هؤلاء الغزاة ظـهرت قوة الأسطول الذي بناه الخليـفة الناصـر. وقد استطاع الحكم أن يستـخدم هذا الأسطول في حماية شواطئ الخلافـة واستمر أسطول إسبانـيا الإسلامية العظيـم يطوف بسواحل شبه الجـزيرة لصد غارات الدانماركيين، وقد تجـمع الأسطول في ثغر المرية أعظم القواعد الـبحرية المطلة على المحيط الأطلنطي، وقـد خرج الحكم بنفسـه ليشرف على الاستـعدادات الدفاعية وقام باستعـراض الأسطول الذي كان يتألف من ثلاثمائة بارجة. وقد خرج أسطول إسبانيا الإسلاميـة بعد ذلك وهاجم سفن هؤلاء المغيرين وقضى

---

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 109.

عليهم. وقد ظهـر الدانيون مرة أخرى تجاه سـواحل إسبانيا الإسلاميـة فحال أسطول إسبانيا الإسلامية بينهم وبين النزول إلى البر. لم يكن الحكم يتردد في أن يطرح العلم جـانبًـا ويرتدي ثوب الجنـدي المقاتـل وفي علاقـة الخـلافـة بالإمارات المسيحية التي أشرنا إليها عند حديثنا عن عبد الرحمن الناصر استمر الحكم يجني ثمار النصر الذي أحرزه أبوه، فـقد كانت هذه الإمارات لا تزال تفتـتها عـوامل الفرقة ولم تسـتطع أن تتحد في جـبهة واحـدة قوية. بل ظل هؤلاء الحكام يتطلعون إلى عاصمة الخلافة يطلبـون النصرة والحماية، فقد اتجه سانشـو الأول بن أردونيو محـاولاً أن يسترد عـرشه مستـعينًا بقوات الخـلافة وحـاول أردينيـو الرابع المخلوع أن يسلك نفس الطريـق وأن يستـعين بقـوات الخلافة ليستـرد العرش الذي اغتصبه منه الأمير سانـشو. وكان الحكم يستغل نزوات هؤلاء الأمراء ومطامعهم ليقر السـلام على الحدود، ولم تكن مساعدته إياهم دون ثمن فقـد كان يشتـرط عليهم التنازل عن بعض القلاع والحـصون الواقعة على الحدود. بل سار على سنة أبيـه في تفريق شملهم والارتفاع بهم حتى لا تجتمع لهم كلمة، ولم يكن يتـردد في القتال إذا لم يكن منه بد، فقد خرج في 963م عندما أحس بالخطر يتهدد الحدود الإسلامية، وقد قاد في هذه السنة صائفة من أعم الصوائف في تاريخ الجهاد.

هوجمـت مدينة قـشتالة واسـتولت على بـعض الحصون عـلى الحدود وأجبرت بعض الأمـراء الإقطاعيين على عقد الصلح كما بعث صـائفة أخرى بعد ذلك بخـمس سنوات بقيادة غالـب بن سعيد. على كل حـال استطاعت جيـوش الخلافـة ذات القوة والنظام والهـيبـة أن تفرض السلام عـلى الحدود وتناثرت الوفـود الأجنبيـة في قرطـبة تشـتري السـلام أو تخطب ود الخليفـة وجاءت سفارات من ألمانيا ومن القسطنطينية. ومن هذا يتبين كيف كان الحكم أمينًا على سياسة أبيه لم يفرط فيها قيد شعرة. كان الناصر قبل وفاته قد اتفق

مع ملك ليون على هدم بعض الحصون وتسليم بعضها الآخر إلى المسلمين، فلما مات الناصر رفض ملك النصارى تنفيذ ما وعد به، ومن ناحية أخرى كانت قشتالة تابعة لملك ليون لكن أميرها استقل وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة ثم حدثت تطورات انتهت بتحالف ملوك ليون وقشتالة ونبرة وكونت برشلونة جميعًا ضد المسلمين، ونظر هؤلاء فوجدوا انشغال الحكم بالعلوم والآداب وإيثاره السلم، فأرادوا استغلال هذا في شن الغارات على الأراضي الإسلامية. لكن الحكم واجههم بما ينبغي وأعلن الجهاد في صيف 352 هـ/ 963 م واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة وسار إلى قشتالة واستولى على قلعة «شنت اشتين» المنيعة وفرق قوات ملك قشتالة حتى اضطر إلى طلب الصلح، ثم نكث عهده فعاود المسلمون الهجوم واستولوا على قلاعه الحصينة، ثم أرسل الحكم جيشًا بقيادة حاكم سرقسطة إلى «نبرة» وجاء ملك ليون لنجدته وجرت موقعة انهزم فيها النصارى واعتصموا بالجبال، ثم سارت القوات الإسلامية إلى قواعد «نبرة» الغربية فاستولت على حصونها، كذلك سار الحكم وشقة شمالاً على رأس قوات نحو أراضي نفس المملكة واستولى على كل ما فيها من سلاح وحصون، واستغرق ذلك كله عامي 352 - 353 هـ/ 963 - 964 م، بالإضافة إلى حملات قام بها المسلمون فيما تلا ذلك من سنوات وتمكنت قوات قرطبة من الاستيلاء على قلاع كثيرة وأرغمتها على التسليم والاعتراف بسيادة قرطبة، وبدأت سفارات هذه الدولة تتوافد على العاصمة الإسلامية في إسبانيا. أضحت إسبانيا الإسلامية كعبة تأتي إليها ملوك النصرانية وتلتمس ودها. بدأ ذلك عام 355 هـ/ 966 م واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير جليقية وأمير أشتورياس، ثم وفدت رسل ملك نبرة، وفي عام 360 هـ/ 971 م جاءت سفارة من أمير برشلونة تطلب تجديد الصداقة، ثم جاءت عمة ملك ليون، وغير هؤلاء، كما تلقى الحكم رسائل

من قيصر بيزنطة، ومن إمبراطور ألمانيا وغيرهما، كل ذلك جعل فندث بيدال - العالم الإسباني الكبير - يقول: «وصلت الخلافة في إسبانيا الإسلامية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة». لكن إسبانيا الإسلامية تعرضت لخطر النورمان الذين ظهرت سفنهم من جديد عام 355 هـ في ميناء الشاطئ الغربي فقد جاءوا في 28 مركبًا، ونزلوا جنوب شرقي «أشبونة» وعاثوا فسادًا ثم زحفوا على المدينة نفسها وخربوا. واجتمع المسلمون لقتالهم وجرت موقعة قُتل فيها كثير من الطرفين. ثم جاء أسطول إشبيلية من نهر الوادي الكبير إلى البرتغال؛ والتقى بسفن الأعداء عند «شلب»، وحطم عددًا من سفنهم وقتل بعضهم، وأنقذ أسرى المسلمين، بعد ذلك ارتد العدو عن المياه، وأمر الحكم بحشد بعض سفن الأسطول عند قرطبة في نهر الوادي الكبير، وأن يكون ترتيبها على شكل مركب النورمان خشية تسرب الغزاة إلى العاصمة عن طريق النهر كما فعلوا في غزوتهم الأولى. وفي (360هـ = 971م) بدأت مراكب النورمان تهدد شواطئ ولاية الغرب، واستعد المسلمون للقائهم، لكن هؤلاء ارتدوا من تلقاء أنفسهم دون معارك بسبب تفوق المسلمين[1]. وتجلى حرص الحكم على سياسة أبيه الخارجية في موضوع العلاقات المغربية الأندلسية. ففي أواخر أيام عبد الرحمن الناصر كاد يقضي على الجهود الكبيرة التي بذلها في محالفة الكتلة الزناتية وإخضاع بقايا الأدارسة. فقد استطاع جوهر قائد المعز أن يصل إلى ميدان المغرب مرة أخرى مخترقًا المغرب الأوسط ومجتاحًا السهل الساحلي حتى أدرك المحيط الأطلسي، وإذا بمكاسب عبد الرحمن تكاد كلها أن تتبخر فلم يبق في إسبانيا الإسلامية من سلطان إلى على منطقة طنجة وسبتة. وما كاد الحكم يبايع بالخلافة حتى تطورت الأمور تطورًا لم يكن في

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 63.

الحسبان، فقد بدأ الخطر الفاطمي يترك أرض المغرب كلها، فقد نجحت جهود المعز في القضاء على الإخشيديين وفتحت مصر وانتقلت خبرة جوهر إلى ميادين الشام. وأصبح النزاع في المغرب - في الحقيقة - بين الكتل القبلية ذاتها. كل كتلة منها تسندها كلتا الخلافتين، الكتلة الصنهاجية يؤيدها الفاطميون، والقوة الزناتية يساندها الأمويون. وكان من الممكن أن يظل الحكم قانعًا بمجرد النصر على هاتين القوتين المتنازعتين لولا أن الكتلة الصنهاجية أحرزت نصرًا كبيرًا جدًا وهزم الزناتية هزيمة كبيرة وبدأ الصنهاجيون يهددون المغرب الأقصى مرة أخرى. فلم يجد الحكم بدًا من التدخل المباشر وعبرت قواته المضيق وأوقفت تقدم الصنهاجيين، ودعى للخليفة الحكم على منابر البلاد. ولكن هذه القوات ما لبثت أن هزمت أمام بقايا الأدارسة فقرر الحكم أن يرسل نجدة أخرى بقيادة القائد الشهير غالب، وعبرت القوات الأندلسية المضيق مرة أخرى وأوقعت ببقايا الأدارسة وانتشر نفوذ إسبانيا الإسلامية على المغرب الأقصى مرة أخرى.

وأثبت الحكم للعالم أنه كفء للأحداث قدير على مواجهتها[1].

***

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 109.

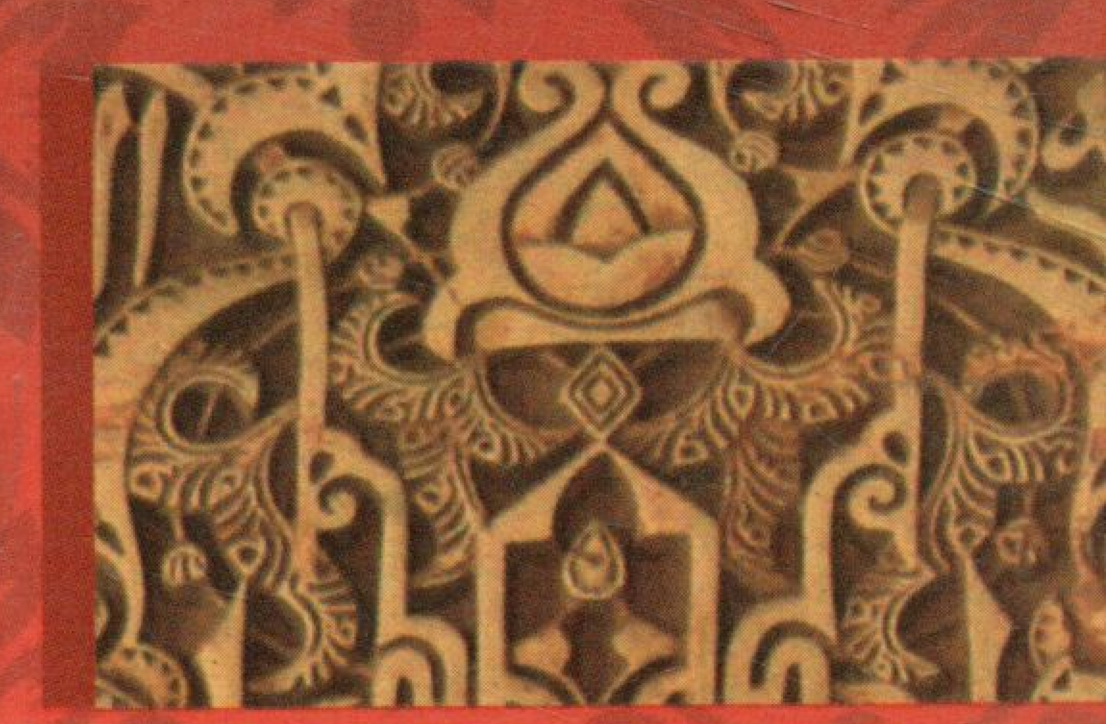
الفهرس

التفكير السياسي في إسبانيا الإسلامية - واجبات الخليفة حسب ابن حزم - نظام الحكم والإدارة - الوزارة - الجيش والأسطول - السياسة الداخلية - الإدارة في غرناطة بنى الأحمر - العلاقات الخارجية - حملة شرلمان - السياسة الخارجية .



البروفيسور الدكتور
محمد حسن العيدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية .
- حاصل على الليسانس من لبنان والماجستير في التطورات السياسية في الإمارات العربية 1932 - 1971 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الإيرانية 1921 - 1971 .
- عمل في دائرة الإسكان والمشتريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984 ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993 وقام بالتدريس في كلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الظفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم في جامعة الكويت ... في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002 ، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المت... 2002 - 2006 : الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري ، ثم رئيس مؤسسة اسكاندافيا لل... والتجاري في السويد من عام 2007 حتى الآن ، وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمية و... الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتردام...
- صدر له أكثر من اثنى عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات ال...
- نائب رئيس جمعية الناشرين الإماراتيين .



العصر الأندلسي

تاريخ وحضارة الأندلس

النظم الإدارية في إسبانيا الإسلامية